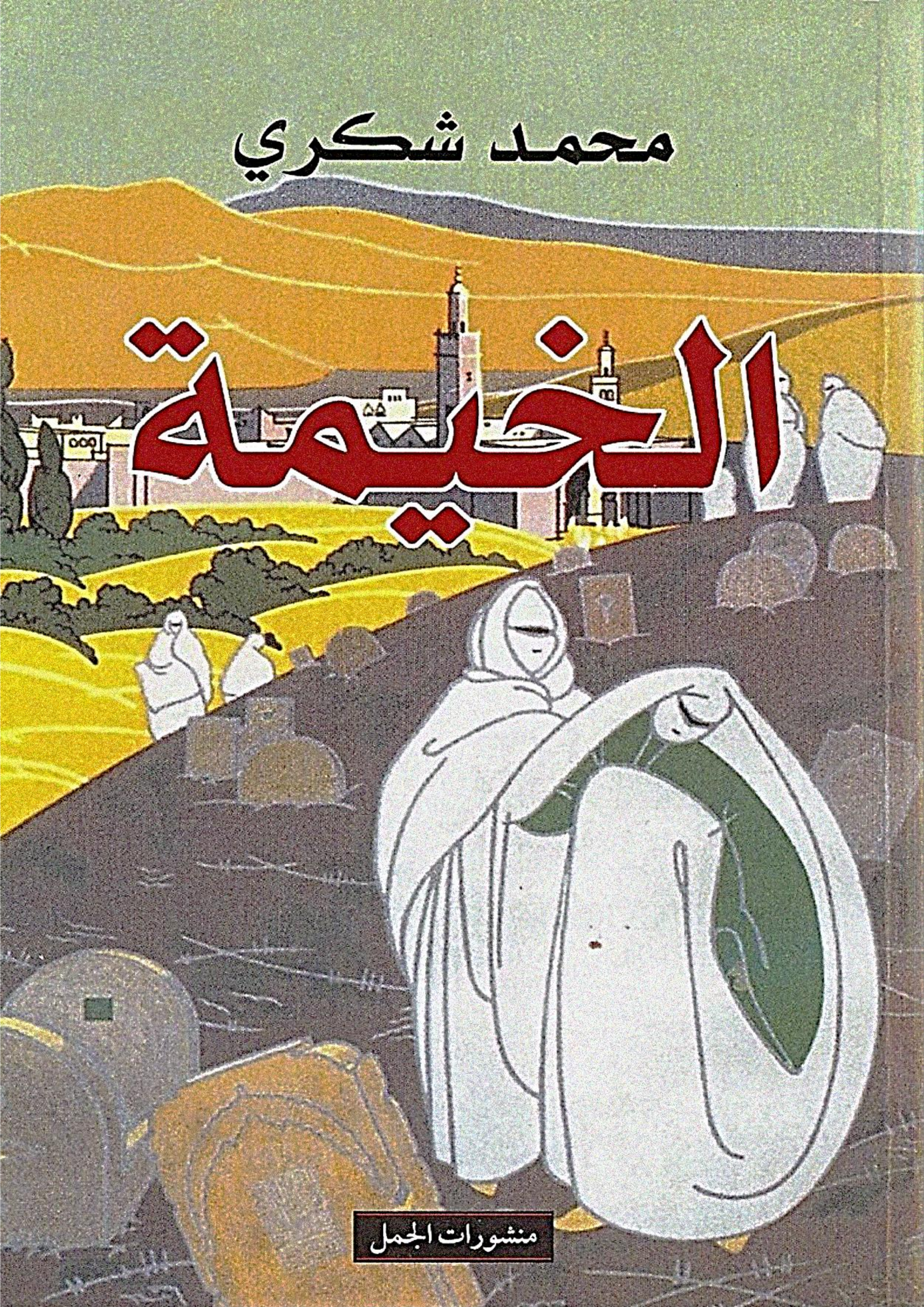
محمد شكري

الخيمة



منشورات الجمل

محمد شكري

الخيمة

قصص

منشورات الجمل

الخيمة

ولد **محمد شكري** عام ١٩٣٥ في الريف بالمغرب. انتقلت عائلته اثر مجاعة الى طنجة. دخل المدرسة بشكل متأخر (في أواخر العقد الثاني من عمره). تُرجمت أغلب أعماله الى العديد من اللغات العالمية. يقيم اليوم في طنجة. صدر له: مجنون الورد، قصص (بيروت ١٩٧٩)، الخبز الحافي، سيرة ذاتية روائية (الدار البيضاء ١٩٨٣)، الخيمة، قصص (الدار البيضاء ١٩٨٥)، السوق الداخلي، رواية (الدار البيضاء ١٩٨٥)، زمن الأخطاء، سيرة ذاتية روائية (الدار البيضاء ١٩٩٢)، جان جينيه في طنجة، مذكرات (الرباط ١٩٧٣)، تينسي وليامز في طنجة، مذكرات (الرباط ١٩٨٣)، السعادة، مسرحية (الرباط ١٩٩٤). صدر له عن **منشورات الجمل**: **السوق الداخلي**، رواية، ١٩٩٧؛ **بول بوولز وعزلة طنجة**، ١٩٩٧؛ **جان جنيه في طنجة، تينسي وليامز في طنجة**، ١٩٩٨؛ **غواية الشحرور الأبيض**، ١٩٩٨.

محمد شكري: **الخيمة**، قصص، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر باللغة العربية (باستثناء المغرب)
محفوظة لمنشورات الجمل ٢٠٠٠، كولونيا - المانيا

الطبعة الثانية: ٢٠٠٦

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

الرجال محظوظون

تقول لي:

ـ تذكر دائماً أنك لقيط.

أفكر أنا أيضاً أن أقول لها:

ـ وأنت؟ من أنت؟ تذكري أنت أيضاً أنني أنقذتك من أبيك الذي طلق أمك الزانية. كان يهددك بالطرد من المنزل إن لم تتزوجي أول من يخطبك. الناس يقولون إن أمك كانت قحبة قبل وبعد أن تتزوج أباك، واليوم هي قوادة بعد أن طلَّقها أبوك. من قال لك إذن بأن أباك هو أبوك الحقيقي؟ كيف تستطيعين أن تثبتي لي ذلك؟ لكني أحاول، في كل مرة نتشاجر فيها، أن أفهمها بأن وجودها أو وجودي يتعلقان برجل وامرأة هي وأنا لا نعرف عنهما الحقيقة كلها، لأن لا أحد يولد كما يريد أن يولد. إنهم يلدونه كما يريدون هم. وحين يجد نفسه قادراً على التفكير في وجوده يكونون قد حكموا عليه بالحياة التي عليه أن يقبلها أو يرفضها بوسائله الخاصة. الإنسان هو الإنسان ولا يهم إبن من هو. لكنها تقاطعني بعنف:

ـ إنك أحمق. لقد تزوجت رجلاً أحمق. لا أفهمك. إنك داعر. لا تنس أنك لقيط.

يصعد الضغط إلى رأسي. أفقد الإنسان الذي يكلمها في

خيالي. أضربها وأضربها حتى يغمى عليها. أحياناً أسقط إلى جانبها منهكاً أو مُغْمىً علي مثلها. في الليل غالباً ما تصحو مرات. توقظني بعنف:

ـ فريد!

ـ نعم.

ـ قم!

ـ لماذا؟

ـ قم بسرعة!

ـ لكن لماذا؟

ـ هناك من يريد أن يقتحم علينا المنزل.

ـ نامي يا يامنة. ليس هناك أحد.

ـ أنصت إلى هذا الصرير.

ـ إن الريح هي التي تهز الباب.

ـ جبان! تفو! أنت رجل؟ إنك لست رجلاً.

بنت الكلبة تظل تهزني، تلكزني، تزيح الغطاء عني، تلكمني حتى أنهض. في كل مرة لا أجد شيئاً. وفي كل مرة أيضاً أفكر في الارتماء عليها وخنقها. وبالعادة صرت أخاف ما يخفيها. في السرير توليني ظهرها. دائماً توليني بنت «الجروة» ظهرها. أقضي الليل، أحياناً، أحدق في الظلام والجدران. كثيراً ما تصرخ في نومها أو أسمعها تردد كلاماً غريباً. أحياناً تطردني من الفراش حين أريد مضاجعتها فأكره كل أفخاذ النساء. أحياناً تعيدني إلى الفراش باكية (فأجدها فرصة لتقبيلها وعناقها ومسح دموعها ومضاجعتها) أو تتركني أنام على المضجع الأرضي الصلب. تردد علي مرات كثيرة ببلاهة:

ـ لماذا أنا هكذا؟ لماذا؟ لماذا؟

عادة لا أعرف كيف أشرح لها حالتها فأقول لها. «لأنك هكذا يا يامنة» وفي قرارة نفسي أقول لها: «لأنك امرأة حمقاء، لأنك من الجنس البشري الرديء يا يامنة». ذات مرة لم أرد أن أعود إلى الفراش بعد أن طردتني فأخذت تصرخ:

ـ إنهض من هناك وتعال إلى هنا!

ـ كلا. سأبقى هنا.

ـ إنهض أقل لك.

ـ لماذا؟ ألم تطرديني بنفسك؟

ـ إن شكلك هنا يخيفني. إنك تشبه جثة. عد إلى الفراش.

أنا جثة إذن في نظر هذه اللقيطة الملعونة. لم أعد أستطيع أن أستعيد معها أية ذكريات جميلة. في لحظات السأم أفكر: أهذه هي المرأة التي سأقضي معها حياتي اللعينة؟ هذه التي لا تتركني أُضاجِعُها إلا حين تريد هي. وحتى حينما يهديها الله فإن مضاجعتها غريبة وشاقة: لا تفتح فخذيها قط. تتمدد متصلبة. تضم فخذيها بشدة كأنها عذراء تخاف أن تُفْتَضّ. ظلت مدة طويلة لا تتركني أقبلها أو ألمس نهديها. تقول لي:

ـ إنني لست قحبتك. اذهب وفتش عن قحبة تقبلها وتلمس لها نهديها بهذا الشكل. ولكن أولاد الحرام هكذا يفعلون. انته بسرعة وقم من فوقي. إنك تثقل عليّ ولا تتركني أتنفس جيداً.

كنت أثق كثيراً في الدكتور فلوريس. إنه شاب طيب جداً معي. إن مجرد التفكير فيه يريحني. كثيراً ما أذهب عنده متألماً. حين أدخل عيادته يَخِفُّ ألمي. حين أخرج يختفي تماماً ألمي حتى إنني لم أكن أحياناً أشتري الدواء. أعطيتها مرة رقم تليفونه:

ـ خذي! هذا رقم تليفونه.

ـ ماذا تريدني أن أفعل بهذه الورقة؟

ـ ألا تعرفين الأرقام؟

ـ ليس شغلك أن أعرف الأرقام أو لا أعرفها.

سبحانك يا رب! فأنت الذي خلقت كل شيء. لم أصدق أنها كانت أمية حتى في قراءة الأرقام. نَظَرَتْ إلى القصاصة في يدها. رمتها فوق الفراش. تأملتني ثم ذهبت إلى المطبخ. قلت لنفسي: إنها بقرة بشرية. أنساني مرضي أنها يامنة الريفية التي لا تعرف أسماء الأشياء والأرقام. كانت تظهر أمامي وتختفي. تخيلتها مثل طفلة لَوَّثَت ثوبها الجميل بالخراء، أو هي مراهقة فاجأها الحيض لأول مرة فلم تعرف ما تفعل بنفسها. فكرت: لقد تزوجت إذن أتعس طفلة تخطئ إذا هي عَدَّت أصابعها. «هذه... هذا. تلك.. ذاك..» هكذا تُسَمِّي الأشياء التي لا تعرف أسماءها. حين أريد أن أعلمها اسم شيء تقول لي في غضب:

ـ أنا لا أعرف. لست في حاجة إلى أن تعلمني أنت.

من أعماق ضعفي صحت لاهثاً فيها:

ـ أخرجي، خذي هذه الورقة واطلبي من بقال الحي أن يدير لك هذه الأرقام على الهاتف. قولي له أن يطلب لك الدكتور فلوريس. سيجيء عنده ثم يصحبه البقال إلى منزلنا. قولي للبقال بأني مريض جداً. اذهبي بسرعة عنده. ماذا تنتظرين؟

بدأت ترتجف مثلي. تشنج جسدها ثم انفجرت باكية. ظلت تبكي وتبكي حتى نامت. في الليل سمعتها تتكلم في الحلم بلهفة: «أدْخِلْهُ كله. اتركه هناك. أدْخِلْهُ، أدْخِلْهُ...!».

وصلنا ساحة «الفدان». كان فريد متعباً، لكنه مسرور. يثق فيّ

كثيراً. يقص عليَّ كل تفاصيل حياته بلا أدنى تحفظ: استمناؤه، الهوس الجنسي الذي أنقذه منه زواجه بيامنة الجميلة والناس الذين يقولون بأن أمه يهودية وأباه مغربي. قبل زواجه كان من عادته أن يركب الباص بعد الثانية عشرة. الحافلة تكون غاصة بالناس في هذه الساعة. أغلب الركاب من التلاميذ. يسدد على إحدى مؤخرات الفتيات مُحتكاً بها والحافلة سائرة فيحصل له القذف. في الليل يمارس العادة السرية مرتين أو ثلاثاً. أحياناً أكثر. كانت لديه صور عارية كثيرة للممثلات والمغنيات يستمني على صورهن العارية تماماً أو نصف العارية. أفتكر منها: نتالي وود، إِلزابيث تيلور، صوفيا لورين، بريجيت باردو ومارلين مونرو. كان يعاني أيضاً من قلق ميتافيزيقي عن الموت ويوم القيامة. أراني ساعته وقال:

ـ ما رأيك؟

ـ ماذا؟

ـ سنبيعها.

ـ فكرة جيدة.

فكرت: صار مثلي. أنا أيضاً بِعْتُ منذ أيام ساعتي في سوق «الجوطية» في طنجة.

دخلنا في زحام السوق الفوقي. أحسست بفارخ في جسمي. تنفست بعمق لأخفف من تعبي. شعرت بغثيان. شربت من ماء السقاية. ماء دافئ مذاقه مثل مخاط الزكام. انعطفنا إلى اليمين نحو طريق سوق الغرسة الكبير. أشم روائح الأطعمة: السمك، شربة الفول، الشواء، التوابل. أشم ناظراً بشهية إلى الأصناف المعروضة في واجهات المطاعم. قال فريد:

ـ سنتناول غداءنا في أحد هذه المطاعم حينما نبيع الساعة.

(فمي يتحلب ومعدتي تطلب أي شيء أبلعه من هذه المأكولات التي أراها والأخرى التي تفوح رائحتها من الطناجر فوق النار). اختلطنا بالباعة والمشترين. أعطى فريد ساعته «لدلاّل» هَرِمٍ وقال له:

ـ إعرضها جيداً على الناس. سأدفع لك أكثر من اللازم الذي تقبضه إذا أنت عرضتها جيداً.

في يد الدّلال أشياء بسيطة للبيع. صاح الدلال رافعاً يده:

ـ ها عشرة دراهم.

قال فريد:

ـ إن صوته ضعيف، واهٍ ومبحوح. لن يثير صوته كثيراً من انتباه الناس.

ـ الناس ينظرون إلى ما في يده وليس إلى صوته الضعيف.

ـ إنك لا تفهم كثيراً في هذه الأمور. إن الصوت القوي يجلب انتباههم حتى ولو كانوا نائمين.

الأجسام تتحرك حولنا في ضيق وتراخ. نصطدم ببعضهم. أحياناً أحس بإحدى قدمي تنسحق تحت عفسة قدم أخرى. أحياناً نعتذر وأحياناً لا نعتذر. يبدو على الناس أنهم لا يجدون ما يفعلونه غير أن يكونوا في هذا المكان اللعين.

بعد حوالي نصف ساعة باع الدلال الساعة بواحد وأربعين درهماً. كانت ساعة جيدة. أعطى فريد للدلال أربعة دراهم. الثمن الذي يأخذه الدلال عادة هو نصف درهم عن كل عشرة دراهم. لم يكن الرجل المسكين قوّاداً على كل حال.

أحسستني جائعاً أكثر من فريد. تخيلتُ طست شربة الفول المتوبلة ثم سمكاً مقلياً وخبزاً أسود. تخيلتني أعصر شطر ليمونة فوق السمك. انبجس مسيل لذيذ في فمي. تضببت عيناي. رعش

جسمي لهفة على الطعام. دخلنا مطعماً صغيراً بائساً ولعيناً. تفوح منه رائحة كريهة ممزوجة برائحة التوابل والأطعمة. ثلاثة أشخاص يأكلون. يبدون متعبين وقذرين. يفتحون أفواههم وهم يمضغون. أسنانهم مسوسة ومصفرة. يحركون أشداقهم بنهم. يمصون رأس سمكة وعمودها الفقري بصوت مسموع. يبلعون بسرعة. عين واحد منهم مريضة. بدت لي عينه مثل حبة عنب سوداء متعفنة. يد واحد منهم معصوبة بقماش ملطخ بالدم والأوساخ. فريد يتحاشى النظر إليهم. وجوههم مكدودة. تجسم فيها كل بؤسهم. فكرت للحظة في شقاء الإنسان. ابتلعت لقمة بسوء. اختنق تنفسي حتى ظننت أنني لن أتنفس مرة أخرى. أسعفني فريد بضربة خفيفة على قفاي. نظروا إلي بصمت ملتهمين طعامهم الرديء. عدت إلى الأكل بأنفاس متعبة. بدأت أخاف كل لقمة أبلعها. أمضغها جيداً وأبتلعها ببطء. أستعد لابتلاعها بحذر. أمسك بحاشية المقعد وأضغط بيدي على الحاشية قبل أن أبلع. تفو على هذا الجسد الرخو الذي أحمله! مجرد التفكير في اضطراب البلع يعذبني قبل أن أبلع.

ـ دخلنا مقهى كونتيننتال. ما زلت أحتفظ بذكريات هذا المقهى سنة 60 ـ 61. لم تعد له اليوم حيويته. المقاهي أيضاً تشيخ. أنا الآن جالس في مقهى عجوز مع فريد الذي يكاد أن يصير مثل هذا المقهى. طلاؤه الجديد يشبه مسحوقاً على وجه امرأة تعيش على ذكريات شبابها. طلبنا بيرتين. صمت فريد لا يوحي بشيء. صمته أبله. عندما تدخل المقهى فتاة جميلة يستغرق طويلاً في رؤية مفاتنها. لا أحبه حين يحاول أن يمزج همومه بهمومي. عندما كنا ندرس في العرائش كان يستغل يتمه في التسول. أنا كنت أقف على بعد خطوات منه وهو يقترب من الشخص الذي يحدس أنه سيعطيه

شيئاً ويبدأ تمثيله: يرخي هيأته بمسكنة، يبدو كما لو كان مريضاً، يتكلم بصوت خفيض بائس. حين يحصل على شيء تتغير شخصيته: يفرك يديه ببعضهما بحيوية، تلمع عيناه، يمشي مختالاً، يتكلم واثقاً من نفسه. ما كان يضايقني منه، ابن الزنا، هو حين أراه أو أسمعه، أحياناً، يقول لأحدهم: «لنا نحن الاثنين: أنا وذلك الصديق. إنه يدرس معي في نفس المعهد».

لم أكن أحتمل أن يشير إلي بيده. إذ أنا أيضاً أخفض رأسي بذل وأنصرف مهموماً وهو يلاحقني قائلاً:

ـ لماذا أنت هكذا متكبر؟ ليس عيباً ما نفعله. إننا لا نتسول.

ـ وماذا نفعل إذن؟

ـ إننا نطلب مساعدة لأننا تلميذان فقيران ولسنا متسولين محترفين.

لم نكن نتسول دائماً من أجل الخبز. كنا ندخن، نحب القهوة السوداء والسينما. أحياناً، نذهب عند العاهرات الهَرِمات. لم تكن لدينا بعد المنحة الداخلية. فريد كان ينام عند أسرة تعطف عليه. كان للأسرة فتاتان تدرسان في المعهد: واحدة مصدورة تحب طالباً مغربياً يدرس في سوريا والأخرى لا يطاق سلوكها العصبي. وهذه العصابية هي التي كان يراجع معها الرياضيات. كان بينهما حب غير متكافئ. «إنها تعرف يا سالم أني لقيط». هكذا يقول لي. أنا أمضي نصف الليل في مقهى تفوح من مرحاضه روائح تؤلم العينين. أحياناً، تخرج الفئران من ثقب المرحاض الأرضي المسطح وتتجول في المقهى ثم تعود إلى ثقبها.

تلقى فريد دَفْعاً قوياً من يامنة. كان يترنح.

ـ أغرب عن وجهي. أخرج من هنا، قذر. سكران.

ارتطم رأسه مع الحائط. استعاد وعيه. أردت أن أتدخل. سمعت يامنة تقول لي:

ـ لا، اتركنا.

أضاف فريد:

ـ نعم، إلزم مكانك.

رأيته يتقوس تحتها ليمسك بساقيها. رأسه تحت صدرها. هي تمسكه من وسطه. ضحكت في سري. إنهما طفلان. حتى الآن أنا ملك لنفسي. وَقَعا. فريد يعتليها، يلطمها، سمعته يتألم:

ـ وجهي، وجهي يا بنت القحبة. تخمشينني. هكذا إذن. هاك: سدد لها لكمة إلى وجهها. الدم ينزف من أنفها. سمعت رأس يامنة يرتطم بالباب. نهض فريد يترنح ويلهث.

ـ هذا ما تريده بنت الزنا. تفو على اليوم الذي تزوجتها فيه!

جلس على المضجع منهوكاً. لم أقل له شيئاً. أتأمله في صمت. بدا خالياً من أية إرادة. أحسست بإدراكي مشلولاً. ذهب إلى المطبخ. سمعت غمغمات:

ـ رأسي. انتظر. سترى. يا ولد الزنا.

أخذ يَرُشُّ الماء على وجهها بينما هي تشتمه.

* * *

قال الجابي:

ـ بعد لحظة سنقف في محطة الرباط.

وقف سالم في المعبر الصغير الواصل بين العربتين. لأول مرة يركب في قطار. كان قد قال لنفسه آلاف المرات: هذه أول مرة أضاجع فيها امرأة. هذا أول يوم أدخن وأشرب فيه. أحب فتاة تشبهني. أشك في حياة بعد الموت. أنام في الشوارع كقط في ليلة

ماطرة. أتوظف. أفكر في الانتحار. الصداقة زائفة. آلاف البدايات من هذا وهذه. بعضها انتهى وبعضها لم ينته أو يبدأ بعد. أحسست أن الساعات الخمس من طنجة إلى الرباط طويلة، مملة. شربت زجاجة نبيذ صغيرة في مقهى القطار. دخنت علبة سجائر شقراء. رأيت مناظر الحقول والماشية والرعاة وبدويين بائسين. فكرت في الإنجيل، القرآن، بتهوفن، ميجيل آنجيلو ودون كيخوتي. هذا الصداع الجانبي في رأسي والخواء الجسمي ربما هما نتيجة تلك الزجاجة من الخمرة. صرير العجلات يشتد بقوة. توقف القطار. عانقت شابة رجلاً هرماً. ربما لن يكون لي مثل هذا الانتظار الحميم قط في حياتي. يكفي أني ابن كاره لأبيه. لا أريد أن أكون كارهاً ومكروهاً.

أوقف سيارة أجرة.

ـ فندق السياحة، من فضلك.

في الفندق تأمل البقع الوسخة للحظة ثم فاحت رائحة كريهة من الفراش، عندما أزاح طرفاً من البطانية. لا بد أن الشموع المنتعظة ذابت في الغيبوبات الوحشية في هذا الفراش. استلقيت. بدأ إحساس الحك يغزوني. تخيلت الحشرات المصاصة تتسلق جسمي. تتنزه على بشرتي. تتمهل هنا وهناك ثم تقرصني وتمتص دمي.

خرج إلى الشرفة. أحس برغبة في الصراخ. لكن من أجل ماذا؟ الليل البارد يغسله. الرباط. حي تمارة. فندق قذر. الأرق. إيقاف راتبه الشهري بسبب إهمال إداري ليس مسؤولاً عنه. الأضواء والوحشة. إنني أضطهد نفسي بدافع لا أعيه بوضوح.

غادر الفندق. أوقف راكب الدراجة.

ـ من فضلك، من أين ينبغي لي أن أقصد شارع محمد

الخامس.

ـ أمن أجل هذا توقفني؟

ابتعد عني وهو يسب. أحسست بخيبة. إنني مُعَلَّب مثل هذه المتاجر المظلمة من الداخل، المضاءة من الخارج.

وقف يرى في واجهة حانوت ركاماً من البرتقال على شكل نهود نائمة. أنا جائع. أحب الفواكه أكثر من اللحوم. روائح الفواكه لا تسبب لي قط الغثيان. لا يسيل منها الدم. توقف أمام أربعة كلاب أو خمسة تحوم حول كلبة واحدة. الكلاب تشم مؤخرة الكلبة وهي تنفر. تذكر آخر حادث عَطَّل حركة مرور السيارات لبضع دقائق في طنجة. كان فرج الكلبة يسيل. كل نقطة دم كانت تحدث نجمة على الأرض. المشهد راقَ للأطفال وأزعج بعض الكبار المصحوبين بعائلاتهم. الكلاب الأخرى تهرب وتعود.

ـ افصلوهما بركلة قوية.

هكذا قال رجل لبعض الشبان. لم يجبه أحد. كل سيارة تحاول أن تمر محترسة ألا تؤذي الزوجين المتألمين. فكّر سالم: لقد تساءلت كثيراً عن الالتصاق المؤلم الذي يحدث للكلبين. صديقي الزيناتي شرح لي ذلك بطريقة لا تختلف عن طريقة بستاني ساذج يتحدث عن زهوره. أخيراً ظهر بطل صغير. برفسة واحدة، بين مؤخرتي الكلب والكلبة الملتصقتين، انفصل العضوان الداميان. صدر عنهما عواء حاد طويل. صفق بإعجاب الشبان لانفراج الأزمة. اقترب سالم من الزوجين المتألمين. هربت الكلاب المنتظرة دورها. هكذا فعل ذلك الغلام في ساحة فرنسا: ضرب سالم بقوة. عواء، أنين، فرار الكلاب. ظل وضع الالتحام كما كان. شعر بخيبة. سأعيد المحاولة بقوة أكثر. سدد قدمه، لكنه أحس بعجز يوقف

حركة رجله. ليتدبرا أمر انفصالهما بنفس قوة الجذب التي ألصقتهما. كانت امرأة متسولة تقول في طريق الصياغين:

ـ أعطني شيئاً، آسيدي، الله يخليك.

التفت إليها الشاب. تمسك رضيعها بين ذراعيها. ألحت المرأة:

ـ من أجل ابنتي. أعطني شيئاً من أجل ابنتي.

كان الشاب واقفاً يتكلم مع شاب آخر. قال لها بسخرية:

ـ قولي هذا لمن جعلك تفتحين ساقيك من أجل أن تكون لك ابنتك هذه.

اندهشت المرأة. ابتعدت منتحبة بصمت.

بعد أن ابتعد سالم خطوات رأى الكلاب الخائفة تعود محومة حول الزوجين المتورطين. قرأ على لوح باب الفندق: «فندق ماجيستيك».

* * *

استرخيت. أحسست للحظة أني لنفسي. تعبي يذوب كما تذوب الشموع في الغيبوبات الوحشية. غفوت. الأشياء تصير لي، أحياناً، بمجرد أن أفكر فيها. رأيت أحدهم في طنجة يخرج أوراق اليانصيب من جيبه. نظر إلى قائمة الأرقام الرابحة وقال لرفيقه:

ـ لا شيء.

ثم نظر إلى الأوراق جيداً وأعادها إلى جيبه.

ـ آه! لو أن هذا الرقم كان هنا وهذا الرقم كان هناك.

هكذا قال لرفيقه قبل أن يعيد الأوراق الخاسرة إلى جيبه. إن وجودي هنا الآن، هنا في بيت كاتي شبيه بأوراق اليانصيب الخاسرة التي أعادها الرجل في أسف إلى جيبه. حياتي الآن مثل الأوراق الخاسرة، لكنني مع ذلك أتمسك بها. إن انتظار ما سيحدث هو

دائماً عندي أقل جبناً. كاتي تدخن، تشرب البيرة تتأمل الجدارن والسقف باسترخاء ولا مبالاة. تيك تاك، تيك تاك. . . عشر دقائق بعد السابعة مساء. شهر مارس. سنة 67. في منتصف مارس اغتيل يوليوز قيصر، في ثلاثين مارس مات كثير من المواطنين المغاربة في طنجة برصاص شرطة الحماية الفرنسية. ولدت في شهر مارس. هكذا قالت لي أمي، لكنها لم تعد تذكر في أي يوم. أجريت «القرعة» مع نفسي. كتبت أيام الشهر في قصاصات ورق. امتدت يدي بعماء إلى واحدة. فتحت القصاصة: 25 مارس. إذن ولدت في هذا اليوم. منذ ذلك اليوم لم أعد كئيباً على يوم مولدي الضائع. ولدت في الفجر هكذا أضافت أمي. تلامست يدانا في عماء قوي كما اخترت يوم مولدي من بين القصاصات. برفق تلامست يدانا ثم بحرارة. رأيت وجهي صغيراً في عينيها الممتلئتين بالندى. يدها تَدْفَأُ أكثر فأكثر. دفءُ جسدها يجذبني إليها. يدها ترشح بالعرق. شاربها الخفيف يَتَنَدَّى مثل يدها. لحست بلساني نَدَى شاربها الخفيف. شممت رائحة تبغ لذيذة في أنفي وأحسست بطعم فمها في فمي. تغمض عينيها، تفتحهما كفراشة تُحْتَضرُ. لا تهمس بشيء. الصمت. تاك تيك. أحسني في الفراغ واللازمان. في لحظة واحدة غمرت جسدينا حُمَّى. في عينيها نجوم وندى.

خرج من منزل كاتي حاملاً تعبه في شارع محمد الخامس. فجأة واجهته ابنة الحارس منشرحة:

ـ سالم، أنت هنا!

كان قد رآها لآخر مرة في شاطىء طنجة تلعب كرة المضرب.

ـ لكن ماذا تفعلين أنت هنا؟

ـ أنت ترى.

ـ ودراستك؟

هزت كتفيها مقطبة عضلات وجهها.

ـ مللت كل شيء في طنجة وجئت إلى هنا لأعمل.

ـ تعملين؟

ـ ليس بعد. لست وحيدة هنا، أنا مع صديقة لي. (أشارت إلى متجر أروقة باريس) إنها تعمل هناك. بعد لحظة ستنتهي من عملها. إنها الآن تدفع حساب المبيعات.

ظهرت سميرة، قصيرة وممتلئة. قدمتها له دليلة ثم أوقفت سيارة أجرة. ركبوا وقالت دليلة للسائق:

ـ مقهى براسوري دو فرانس.

وعندما نزلوا من السيارة فكر سالم: ملابسهما مهملة. ربما تنامان في أحد فنادق الفسافس مثل الفندق الأول الذي لم أنم فيه أمس. دفع للسائق درهمين ودخلوا المقهى.

ـ شهر ونصف منذ أن غادرنا طنجة. إننا بدأنا نعتاد حياتنا هنا، لكن الصعوبة هي...

قاطعتها سميرة:

ـ كفى يا دليلة. لا تقلقي. أنت أيضاً ستجدين عملاً.

قال سالم لدليلة:

ـ لم أر أمك منذ أن نقلوني إلى مدرسة أخرى.

وقف أمامهم النادل. طلبت دليلة بيرة. سميرة طلبت قهوة بالحليب وسالم بيرة.

ـ لكن، هل وافقت أمك على مجيئك إلى هنا مع سميرة؟

ـ لم أعد أسمح لأحد أن يتدخل في حياتي. كانت تتعبني بنصائحها. لم أطقها عندما أدركت أنها تريد أن تتخلص مني. قالت

لي بأن رجلاً مثرياً جداً يخطبني.

ـ كوني عاقلة يا دليلة. إلبسي هذا القفطان. لا تجعلي الناس يسمعوننا نتشاجر. هذا المساء سيأتي الرجل. صرخت في وجهها:

ـ كلا. لن ألبس هذا القفطان. إلبسيه أنت. إنه يناسبك أحسن مني.

قالت:

ـ كوني عاقلة. ستقدمين للرجل وعائلته صينية الشاي. أتيحي له أكبر فرصة ليرى وجهك جيداً. إنك جميلة. كوني حاذقة في تقديم الشاي والحلويات، كوني خجولة. حافظي على هدوئك. الرجل من عائلة أصيلة طنجية، محافظة وشريفة. إياك أن تجعلينا نخجل أمام الشرفاء.

صحت في وجهها:

ـ ماذا يهمني أن يكون الرجل من عائلة طنجية أصيلة، محافظة وشريفة؟ كلا. أنا ما زلت صغيرة. لم أبلغ بعد السادسة عشرة. لا أعرف هذا الرجل ولا أريد أن أعرفه. قولي له أن يفتش عن عائلة طنجية أصيلة، شريفة ومحافظة مثل عائلته الشريفة.

صمتت دليلة. قلت لها:

ـ وهل رأيت الرجل الذي أراد أن يخطبك؟

ـ كلا. لقد هربت في المساء وبت عند سميرة. في الصباح جئنا إلى هنا. كانت سميرة واضعة يديها على ركبتيها مبتسمة بين لحظة وأخرى. تتأمل دليلة بود وإعجاب. ابتسمت أنا أيضاً لسميرة بود. بلهجة مُرّة قالت:

ـ معها الحق. أنا أيضاً كانت تنتظرني نفس المتاعب. معظم الآباء اليوم هكذا هم. من الأحسن أن نبتعد عنهم بمجرد أن نستطيع

ذلك.

قالت دليلة بارتياح:

ـ إذا لم أجد عملاً لي هنا فسننتقل أنا وسميرة إلى الدار البيضاء. إنها مدينة العمل.

خرجوا من المقهى. صفعتهم لفحة برد خفيفة. أوقف سالم سيارة أجرة. قالت دليلة للسائق:

ـ سينما سطار Star.

قدام السينما أدركت أن عشرات عيون الناس تراقب حركاتنا. إنه سينما رجال. لم أر إلاّ اثنتين أو ثلاث نساء. وقفت بينهما. أعطيت ألف فرنك لدليلة. كانت هي التي ترشدني أصرَّت على أن تذهب هي بنفسها لتشتري التذاكر. سينما شعبية، مثل «كازار» و«كابيتول» و«الأميركان» في طنجة.

سميرة تبدو أكثر رزانة من دليلة رغم أنها في مثل سنها أو أصغر. لم ترد لي دليلة الصرف لم أقرأ عنوان الفلمين اللذين سيعرضان معاً في نفس الدخلة.

كان سالم ينعس حين سمع سميرة تقول لشاب بجانبها:

ـ إذا لم تتركني فسأنادي على الشرطي.

ربت شخص على كتف سالم من الوراء:

ـ هاك.

كأس خمر. إنهم هنا أيضاً يشربون نبيذاً بالتناوب في كأس واحدة كما يحدث في «كازار» و«كابيتول» في طنجة. لن أرفض الكأس. طلقات الرصاص وصرخات الهنود الحمر على الشاشة تختلط أحياناً بصرخات النظارة. لكزتني دليلة بمرفقها:

ـ ها هو ذا الفيلم الثاني الجيد يبدأ.

خرجنا. التعب أفقدني كل شهوة.

في البداية كان سالم قد اشتهى سميرة. لم يشته دليلة. صاح سالم: تاكسي! لم تعد لديه رغبة قضاء الليلة معهما. كانتا تسكنان مع فتاتين أخريين في شقة واحدة. سميرة كانت رزينة إلى جانبه. قالت دليلة:

ـ أحس بالبرد في الرباط أكثر من طنجة.

التفت سالم إلى حركة ساقي سميرة: سمراء، وجهها مدور كتفاحة، شعرها كستنائي، نهداها مثل بيضتين.

نزلتا من السيارة وتابع هو طريقه إلى فندقه. الشوارع مقفرة. فكر: إن ليل الرباط يختلف عن ليل طنجة. هناك الآن رواد البولفار والسوق الداخلي.

يحب دائماً شمس الصباح. لم يكن قد نام جيداً. كان يسير ووجوه الناس تمر أمامه كالأشجار التي تبدو من خلال نافذة سيارة تسير بسرعة كبيرة. وجوه متعبة أكثر من الوجوه التي تعود على رؤيتها في المدن الشمالية. إني هنا منسحق في هذه المدينة التي أزورها لأول مرة. كان قد سأل صديقته كريمة في حانة بكنكس ذات صباح باكر:

ـ ماذا يعجبك أكثر الشروق أم الغروب؟

اندهشت. قالت كطفلة حائرة:

ـ لم يسبق لي أن فكرت في الشروق أو في الغروب؟

قال:

ـ حاولي ذلك. قولي لي فيما بعد أيهما أجمل.

التقاها مراراً ويعيد عليها نفس السؤال مازحاً. وفي كل مرة تقول له جادة:

ـ سأحاول ذات يوم.

كان يقول لها:

ـ ابدئي هذا المساء. سأعطيك هدية جميلة إذا حاولت.

ـ ليس اليوم. ذات يوم سأحاول. أنا لا أحب من ينصحني بفعل شيء.

من بعيد رأى سميرة ترتب الملابس فوق عربة البيع خارج الأروقة.

تصابحا ثم قال لها:

ـ أنا عائد إلى طنجة.

ـ ألن تبقى معنا يوماً آخر؟

ـ لا أستطيع. غداً سأكون في عملي.

وضعت سبابتها على صدغها وقالت:

ـ كنت سأقول لك شيئاً مهماً. لكن ما هو؟ إنني أنسى كثيراً هذه الأيام. آ. تذكرت: لا تقل لأم دليلة بأنك رأيتنا هنا. عد إلينا ذات يوم.

ـ ودليلة، أين هي الآن؟

ـ تركتها نائمة.

ابتسم لها وودعها. لوحت بيدها. تذكر صديقه عزيز الذي قال له يوماً: «أحياناً، الإحساس بالحب الحقيقي هو أن تكون مسافراً في قطار ومن تحبها مسافرة في قطار آخر يختلفان في الاتجاه». التفت إليها لآخر مرة. ابتساماتها بدت كئيبة.

أدركت أيضاً أنها لم تكن راضية عن الطفل، لكنها لم ترد أن تمنع انتفاخه في بطنها. قلت لها: أسقطيه إذا لم تكوني راغبة فيه. قالت: «كلا، هل تريد أن تقذف بي إلى جهنم؟ كلا، هل تحسبني

مثلك؟ أنا لست مجرمة».

كان الجنين يفرض نفسه علينا يوماً فيوماً. هو كان ينتفخ وأنا كنت أقول لنفسي: مشكل آخر. سيملأ صراخه هذا البيت في بعض اللحظات الصافية، الهادئة. لن يختلف عن أطفال العالم المزعجين. كم أكره صراخ الأطفال! مع ذلك فأنا أعرف أن الصراخ هو كل ما يملك الطفل ليعبر به عن نفسه.

بعد أسبوع من الميلاد عثرت على قصاصة مكتوبة بخطٍّ بدائي: الحروف كانت بلا نقاط، السطور منحدرة. أريتها القصاصة. رمتها وبدأت ترتجف.

ـ أبعدها عني. أين وجدتها؟

إلتقطُها.

ـ وجدتها مدسوسة بين ثِنية «المطربة».

ـ أخرجها من الدار. كلا، احتفظ بها. سنبحث عمن يبطل مفعولها.. إن عمل ساحر جبار لا يبطله إلا ساحر جبار مثله.

أخذت تنتحب ضامة إليها الطفل. تقبله وتداعب رأسه بحنان. سمعتها تقول:

ـ اللعنة على جميع النساء الحاسدات! اللعنة علي أنا أيضاً! أتمنى لو أني وَلِدْتُ رجلاً. أنتم الرجال محظوظون في كل شيء. نحن النساء اللواتي نتحمل همومكم.

بعد جهد مليء بالدوار والغموض، فهمت منها أن امرأة عاقر هي التي لا بد أن تكون قد وضعت لها هذه الشعوذة لتعقمها وتأخذ هي خصوبتها منها. أفهمتها أنها مجرد سورة قرآنية مكتوبة بارتباك، مليئة بالأخطاء، وأن لا علاقة للعقم والخصوبة بالسحر. لكن أوهامها كانت عنيدة. أخذت بعض المال وذهبت تفتش عن ساحر

جبار يستطيع أن يبطل مفعول تلك الرقية. «إن عمل راق جبار لا يبطله إلا راق جبار مثله». هكذا كانت تردد علي بتوتر وخوف.

ـ فريد.

ـ نعم.

ـ قم.

ـ لماذا؟

ـ الشياطين تتصارع في روحي. اللعنة علي لأني تزوجت رجلاً مثلك يخاف من ظله.

بعد صدمة السحر أخذت تصاب بنوبات عصبية عنيفة. تستغفر خطايا وهمية لم ترتكبها. «ماذا فعلت يا رب؟ أنا بريئة. إنهن يردن بي شراً. أنقذني منهن. أنت تعلم وحدك جيداً مصيبتي».

ـ فريد.

ـ نعم.

ـ إقرأ من أجلي سورة من القرآن. إن قراءة القرآن تخفف عني همومي إقرأ علي سورة. إني شقية.

أقرأ عليها سورة أو سورتين. أقول لها بعد أن أنتهي من القراءة:

ـ والآن؟

ـ حالتي الآن أفضل.

يستمر نحيبها الحاد، المتقطع، يمتزج بصراخ الطفل ساعات. أفكر: إني تزوجت امرأة مريضة وحمقاء. لا بد أن أنتهي مريضاً وأحمق مثلها. حتى الطفل لم يكن أحد منا يريده. ماذا جعلني بالضبط أتزوج بها؟ لا أدري. لا بد أني كنت خارج وعيي، يائساً من الانتظار حتى أجد الفتاة التي أحلم بها، كارهاً لعادتي السرية. الجنس! هذه هي مشكلتي يا سالم. أحياناً كنا نتضارب والطفل

يصرخ. ذات مرة صرخت في وجهها:

ـ كفى. أنت التي غلَبت.

تواجهنا. كلانا يلهث بمسكنة وغباء. كانت نظراتها تقول لي: هل تريد أن نستمر؟ فأقول لها في خيالي: كلا. قلت لك أنت التي انتصرت.

طلّقتها. كان هذا هو الحل الوحيد معها. زارني أبوها. كنت خارج المنزل أشاهد في تلفزة المقهى محمد علي كلاي ينتصر على خصمه الإنجليزي. وجدت أباها ينتظرني قدام الدار. قال لي بأننا سنتكلم. عندما دخلنا رجوته أن يجلس، لكنه رفض. رأيت الشر في عينيه. قال:

ـ لماذا ضربت لي ابنتي؟ تكلم يا ابن الزناء. تكلم أيها اللقيط.

لم ينتظر حتى أشرح له. ارتمى عليّ وأخذنا نتضارب بعنف في هذه الحجرة بالذات. كان يعضني ويشتمني باللهجة الريفية التي لا أفهمها. حين تعبنا تهالكنا على المضجع وراح يقول لي:

ـ سأقتلك يا ابن الزناء. أنت لا تعرف بعد من هم الريفيون. لقد رأيت الشر في عينيك من أول يوم جئت تطلب فيه الزواج من ابنتي. كثيرون قالوا لي بأنني سأكون أحمق إذا زوجت لابن زنا مثلك ابنتي. الناس كلهم يعرفون أنك لقيط تربيت في ملجأ اللقطاء. إن الله لا يرضى عن هذه المصاهرة. لكنني أشفقت عليك. قلت لهم بأن ذلك لا يهم. يكفي أنه رجل يريد أن يكون مثل كل الناس. إنه مسلم ومواطن مغربي. قال لي بعضهم بأن أمك لم يكن لها دين ثابت. لم أكن أصدق، لكنني اليوم أصدق كل ما يقال عنك أيها الحيوان. لقد أفسدت تربية ابنتي ثم طلّقتها لتقحب في الشوارع.

عند الباب تجمع أطفال ونساء. كان زبد أحمر ينقذف من فمه.

كنت مخدوشاً في وجهي وعنقي ومعضوضاً في كتفي وذراعي وظهري. بعض عضاته سلخت لي جلدي. حاول أن يقبض على أسفل بطني. أنقذتني منه نطحة رأسي التي أعطيتها له في وجهه. حين داخ، أعطيت له ضربتين في بطنه. تقوس ثم طاح على الأرض.

ـ ويامنة، أين هي الآن؟

ـ لا أدري. ربما هي موجودة في منزل أبيها أو في مكان ما تقحب.

ـ والطفل؟

ـ تنازلت لها عنه.

كان فريد يتكلم بتعب. الألم قاس في بطنه. كشف عن بطنه الأرقش. النقاط بنية. قلت له باندهاش:

ـ ما هذا؟

ـ هذه حكاية أخرى. كنت مريضاً. عادني جاري القادري صحبة فقيه. شرحت لهما بأني لا أؤمن بعلاج الفقهاء الدجالين. غضب القادري واعتبر كلامي إهانة له وللفقيه الذي يصحبه. نظرا إلى بعضهما بصمتٍ لحظة. فكرت: ماذا يريدان بي؟ فجأة انقضا عليّ وأوثقا لي يدي ورائي بحبل. أخذت أصرخ. كمما لي فمي. جاءت يامنة بمجمر يتطاير منه الشرر وراح الفقيه ولد الزنا يسخن سفوده حتى احمر ثم بدأ يكوي لي بطني ويبصق لي على حروقي ورائحة جلدي تزكمني حتى صرت أتقيأ من أنفي وأبول في سروالي. كان يكويني بنشوة رأيتها في عينيه الثعلبيتين. كان يقرأ قراءة سرية والقادري القواد يوافقه بهزات رأسه. سمعته يقول له:

ـ استمر على بركة الله. كل شيء يسير بخير.

قال الثعلب:

ـ إن عنده استعداداً حسناً للعلاج.

امتلأ رأسي بصراخ مجنون. قلبي يخفق بعنف. سمعت القادري يقول لي:

ـ كن عاقلاً يا السي فريد. لحظات فقط ويتمُّ كل شيء بخير. إنك في حضرة رجل بركته خير من علاج ألف طبيب. آه! لو أنك فقط تعرف بين من أنت الآن.

باطمئنان ظل الدجال يكوي لي بطني. حاولت عبثاً أن أتخلص من القادري الذي كان يمسكني بكل قواه رغم أني كنت مربوطاً من معصميّ ورائي.

ـ شيئاً من الصبر الجميل. إلعن الشيطان واهدأ. اتركنا ننقذ حياتك. والله شاهد علينا أننا لا نضرك في شيء.

صرخت في خيالي: النجدة! النجدة!

ـ نحن نفهم حالتك. لا نلومك يا السي فريد. كن عاقلاً. إنك بين يدي خير إنسان. بركته هبة من الله وأولياء الله الصالحين.

أنهى الدجال العلاج. فك القادري كمامة فمي. قلت بضعف:

ـ سأقتلكما فيما بعد.

قال القادري:

ـ من العار أن تتفوه بهذا الكلام أمام هذا الرجل الصالح. أنا لا يهمني أن تُهينني، لكن هذا الرجل الشريف ينبغي لك أن تحترمه.

فك رباط يدي. قذفت الدجال الذي اقترب مني بركلة لم تصبه ابن الزانية. تلفظت بضعف: تفو عليكما!

قال القادري:

ـ ما شاء الله يا السي فريد. إنك لم تكن هكذا من قبل.

كنت دائخاً. أتنفس بصعوبة. أردت أن أبصق عليهما، لكني خفت أن يظنا أني ما زلت في حاجة إلى علاج أقسى من العلاج الذي فعلاه لي.

زرت الدكتور فلوريس. وصف لي مقويات لأعصابي الهابطة ومُرْهَماً لِكَيَّات بطني التي تَقَرَّحت.

خرجا من حانة ريبيرتيتو Rebertito قال سالم:

ـ ينبغي أن تكف عن عادتك قبل أن تنهار مرة أخرى.

ـ أنت تعرف أني أخاف من الأمراض الزهرية. كنت أمارس عادتي السرية مرة أو مرتين في الأسبوع حتى حين كنت متزوجاً بيامنة. كنت أيضاً أتخيل امرأة أخرى وأنا أضاجعها. من يتزوج بيامنة ولا يستمني. . .؟

سأله سالم وهو يشير إلى المنزل الذي يقتربان منه:

ـ هل تعرف من تدير هذا المنزل؟

ـ كلا.

ـ لنصعد. ربما ما زالت هنا.

ـ من؟

ـ السيدة شامة. إنني أعرفها.

فتحت لهما للاّ شامة. قال سالم:

ـ لقد فكرت أنك ما زلت هنا يا للاّ شامة.

قالت له:

ـ وأين تريد لي أن أذهب؟

صافحتنا وسألتني:

ـ وأنت، هل ما زلت في طنجة؟

ـ نعم.

ـ والسوق «الداخل» أما زال عُشّاً للهيبيين؟

ـ وأين تريدين لهم أن يذهبوا؟

ـ حتى هنا في تطوان بدأوا يفدون علينا بكثرة مثل الجراد. إنهم يسكنون في الضواحي والأحياء الفقيرة.

ـ إنهم يحبون البساطة في العيش. . .

ـ لكنهم قذرون. إن الهيبيات ينقلن عدوى الأمراض الجنسية لشباننا.

ـ لسن كلهن مريضات يا للاّ شامة.

ـ إنهم قذرون جداً. الرجال والنساء معاً. القذارة تسبب المرض. إن المرأة التي تنام مع رجل ولا تغتسل فلا بد أن تمرض وتنقل العدوى لمن يضاجعها.

ـ هذا صحيح.

بدت السيدة شامة مرحة كعادتها. تراءت هناك فتاة واقفة تدخن. تلتفت إليهما ببرود. ترك فريد سالم يتفاهم مع السيدة شامة وابتعد خطوات عنهما. قال سالم لفريد:

ـ هناك فتاة أخرى مشغولة مع رجل. ادخل أنت مع هذه وسأنتظر أنا الأخرى.

قال فريد:

ـ أدخل أنت الأول. سأنتظر أنا الأخرى.

ـ أنا سيان عندي، لكن، إذا شئت، ادخل أنت مع هذه. إنها جذابة، ألا تراها؟

ـ كن أنت الأول أحسن.

ـ إذن سنلعب وجه الفلس والقفا. من يربح يدخل هو الأول.

ضحكت السيدة شامة. قفزت الفتاة من مكانها واقتربت منهم.

نظرت السيدة شامة إلى الفتاة وقالت لها:
ـ سيلعبان وجه الفلس وقفاه من أجلك أنت. هذه أول مرة أرى فيها هذا في حياتي.
أطار سالم الفلس في الهواء. تلقفه وأطبق عليه براحة يده اليمنى فوق ظهر يده اليسرى. قال لفريد:
ـ وجه أم قفا؟
تمهل فريد مبتسماً ثم قال:
ـ قفا.
رفع سالم يده:
ـ وجه.
قال فريد لصاحبة المنزل.
ـ أعطيني زجاجة بيرة..
ارتمى على المقعد. تبع سالم الفتاة إلى غرفتها. كانت للفتاة ابتسامة تذكِّره بفتاة إرلندية كان قد عرفها في طنجة.
ـ إن صديقك يبدو مهموماً.
ـ هذا مزاجه.
دخلت السيدة شامة حاملة صينية عليها بيرتان. سألها سالم:
ـ ألم تخرج الفتاة التي ينتظرها صديقي؟
ـ لقد سمعت باب غرفتها يفتح. إن الشخص الذي دخل معها يتهيأ للخروج.
فكَّر سالم في صديقته سلوى. ربما سأجدها قد عادت إلى طنجة. إنها تحب البيرة المثلجة وسجائر لاكي سترايك. سمعتها مرة تقول لصديقتها عفاف: «إنني أنتعش ويزداد وزني عندما أقضي الربيع في مكناس والشتاء في مراكش، لكني في طنجة أهزل في جميع

الفصول».

إن حياة سلوى متعلقة بسلامة فرجها.

مدت له كأسه:

ـ إنك شارد.

ابتسم لها:

ـ أعذريني. هكذا أنا في بعض الأحيان.

تأمل بسمتها وحركة شفتيها ورأسها. فكر: إنها لطيفة. شربت كأسها أخذت تخلع ملابسها. يجب أن أخلع عني حزني وفرحي بنفس السهولة التي تخلع بها ملابسها. كم كنت أريد أن أمنع ما حدث لسلوى مع ذلك التاجر. كانت قد سألته:

ـ كم هذه التنورة؟

ـ لا أبيع للسكارى في الصباح. إن هذا يجلب لي الشؤم. أخرجي من متجري.

ـ أنا أشتري منك. لا يهمك أن أكون سكرانة أم لا. قل لي الثمن.

ـ أخرجي.

ـ إن بائع السمك يبقى دائماً بائع السمك. من بائع السمك في العرائش إلى تاجر ثياب في طنجة يحتقر المشترين.

ـ أخرجي من حانوتي.

ـ لن أخرج. قل لي ثمن هذه التنورة لآخذها.

ـ خذي إذن.

يلكمها بعنف. لم يتدخل أحد من المتفرجين. أردت أن أتدخل. قال لي أحدهم:

ـ قف مكانك. لا تتدخل فيما لا يعنيك. هل أنت حاميها؟

كانوا يشجعون التاجر على الاستمرار في ضربها.

ـ أعطها.

ـ زدها.

ـ تستحق أكثر من ذلك.

ـ إنه رجل متدين ومحترم.

ـ القحبة السكيرة.

ـ سنشهد لصالحه.

أنفها ينزف.

ـ أنتم ترون. لقد جاءتني هذه الملعونة بنت الزنا وضايقتني كثيراً. قلت لها: أنا لا أتعامل مع السكارى، لكنها تصرفت معي ككلبة مسعورة. شتمتني وشتمت كل عائلتي.

ـ نعم. عندك الحق. نحن معك.

قال أحدهم:

ـ إنها تتضاجع مع الأوروبيين في فنادق البولفار. أنا أعرف بعض النصارى الذين تمشي معهم.

ـ صحيح إنها كلبة.

ـ الواحد لا يعرف حتى من أين جاءت.

ـ إنها أكثر قحبة من دجاجة كما يقول الإسبانيون.

ظهر شرطي. قال بخشونة:

ـ احملوها. إنها هكذا هذه النتنة.

اشمأز الجميع من حملها. كانت ملقاة على الأرض. عيناها مفتوحتان. أنفها يسيل منه مخاط أحمر، ثيابها متمزقة.

ـ جُرُّوها. إنها تلعب علينا دورها.

حملها اثنان من إبطيها. رأسها يتدلى إلى الأمام. عندما اقتربوا

من مخفر الشرطة صاح شيخ سكير يتسخر لرجال الأمن:

ـ ارجعوا إلى الوراء. أنتم تعرفون من هي. لقد رأيتم ما حدث لها. ماذا تنتظرون الآن؟ إبحثوا عن شيء آخر.

بدأ يطفو سالم فوقها. فكر في «ماخا جويا العارية» أحس أنه بلا وزن. الفم الوحشي المخاطي ينفتح وينكمش ويمتص شيئه.

حينما خرج من الغرفة مع الفتاة رأى السيدة شامة منزعجة. قالت له:

ـ صديقك ذهب مع الفتاة التي دخل معها.

اندهش ثم سألها:

ـ كيف حدث ذلك؟

ـ اسأله هو. أنا أيضاً لم أفهم كيف حدث ذلك.

قالت الفتاة برقة للسيدة شامة:

ـ هل ذهبت يامنة المسكينة معه؟

ـ قالت لها للاَّ شامة بسخرية مشيرة إلى سالم:

ـ نعم، لقد ذهبت معه. قولي لسالم أيضاً أن يأخذك معه إذا شاء.

ضحكت الفتاة ناظرة إلى سالم بود. جلس على مقعد وطلب بيرة من السيدة شامة.

طنجة ـ مارس 1967

الأفواه الثلاثة

أمشي صامتاً إلى جانبها. تخزر إلي بلا تعبير. سأذكر لها المبلغ الذي سأدفعه لها. رأيتها في «الميدان». لم أكلمها من قبل. أكاد أعرفهن كلهن. هل ستكون لي بعض المزايا لأمتلك امرأة عندما أشيخ؟ قال لي شيخ يوماً: «مزايا الشيوخ عند النساء المال ومزايا الشبان عندهن النزوة». أحس، منذ الآن، مذلة شيخوخة بلا مال. إنها ترعبني. ربما لهذا السبب أريد أن تكون رغبتي في هذه الفتاة شبيهة بمن يذهب إلى المقابر ليشعر أنه يحيا. انعطفت معها إلى شارع فاس. همست لها:

ـ هل أنت حرة الآن؟

نظرت إليّ بلامبالاة. أعرف أنها سمعت مثل هذا التعبير مئات المرات، لكن ماذا عساه يقوله رجل لامرأة محترفة؟

ـ هل تريدين أن نقضي وقتاً معاً؟

ـ أعتذر. لم يبق لي إلاّ ربع ساعة. إنني أعمل في مرقص راندي ونستون.

نظرت إلى ساعتي: العاشرة إلا ربعاً. دخلت المقهى الصغير القريب من المرقص الذي تعمل فيه. تركتها ريثما تجلس ثم دخلت. سمحت لي أن أجلس معها إلى طاولتها. وضع لها النادل

فنجان قهوة مضغوطة. طلبت أنا بيرة باردة. تحت عينيها كدمتان. مسحوق التجميل الوردي لم يخفهما. كلهن، تقريباً، لهن حُماة. قلت لها:

ـ الأمر سيتمُّ سريعاً في فندق قريب من محل عملك.

دخلت زنجية مغربية: شابة، جميلة. قالت:

ـ «أليسْ». أنت هنا وأنا أفتش عنك.

وضع لي النادل بيرتي. تَبَاوَستا على الخدين. حيَّتني بهزّة من رأسها. هي أيضاً من المحترفات. منذ فترة وأنا أراها ترتاد ميدان العاهرات. تتكلم بتوتر مع «أليسْ»: نَهَضتْ. مشت نحو الوِجاق برشاقة. خادم الوجاق زنجي مثلها. تبادلت معه كلمات ودية وضحكات مقتضبة. طلبت قهوة سادة. عادت تجلس معنا مهمومة. تأملت البثور المزروعة في أطرافها. حَكَّت ذراعها اليُسرى. سألتها «أليس»:

ـ هل حلّلت دمك؟

مجّت من سيجارتها وقالت:

ـ ليس بعد. رضوان قال لي بأنها ليست سوى حكة جلدية.

كشفت عن فخذيها المزروعتين بالبثور.

وضع لها النادل فنجان قهوتها السادة. رأيت زميلاً طالباً من مدينة العرائش يبول دماً. كان يمشي منفرج الساقين. لونه شاحب وفي حركاته تعب. حين دَلَّني عن التي التقط منها تعقيبته راهنته أني أستطيع مضاجعتها دون أن أصاب بالمرض. كنت أعتقد أن الإصابة بأي مرض له علاقة بقوة الإرادة وضعفها. لم أكن أعرف شيئاً عن عدوى الجراثيم.

حين أحسست أن الزنجية ستنصرف قمت بسرعة ودخلت المرحاض حتى أتلافى مصافحتها. خرجتُ بحذر من المرحاض. كنت سأختلق أي سبب للرجوع إلى المرحاض أو مغادرة المقهى لو أني وجدتها ما زالت هناك. جلست. قلت لأليسْ وشهوتي لها ترقص في عينيّ:

ـ سأعطيك ألفاً وخمسمئة فرنك. إني أعدك. حوالي ربع ساعة، لا أكثر.

ابتسمت راشفة من قهوتها. فكرت: يبدو أن هذه اللعبة الغزلية تروق، أحياناً للمحترفات. إنهن يتذكرن حياتهن قبل أن يصرن محترفات. تخيلتُ ثوراً يشم مؤخرة بقرة. يرفع رأسه إلى السماء مستنشقاً ما علق بمنخريه ثم يصوت هووم م م... تمشي البقرة والثور الهائج يتبعها...

ـ اترك الأمر للغد إذا شئت. لقد استيقظت منذ ساعة. لم تمض أكثر من نصف ساعة على عشائي. سأصعد الآن إلى المرقص.

دفعت للنادل ثمن البيرة والقهوة وتَبع الثور البقرة إلى الحظيرة.

كتب لي صديقي أحمد من تطوان في نهاية رسالته: «أكتب لي عن أكبر عدد من تجاربك الجنسية في هذه الأيام...».

كتبت له: «أكتب لك هذه الرسالة بعد آخر تجربة. منذ ساعات كان عطر امرأة يدوخني. إن سبب بقائي في طنجة لعنة مفروضة عليّ، لعنة، لكنها لذيذة. لو كنتَ معي هنا لقذفنا معاً بالمسيل المجنون الحيّ في نفس المغارة اللحمية اللزجة. إن أشد أنواع الاشتهاء يتحول إلى عجز مرير حينما يوحي الموضوع

بالاشمئزاز. جذور هذه التجربة عفنة. لم أعد نقياً. لقد سقطت في الواقع العفن. المخلص: ادريس».

كنت قد كتبت له عن تجربتي مع نورا طوال سنة لم أكن أعرف ما أريده منها. قابلتها في نهاية الشهر الماضي. تعودت أن أحيا يوماً واحداً بعمق حين يكون راتبي الشهري كاملاً في جيبي. يوم واحد وبعده إفلاسي. ذهبت معها إلى فندق جويا Goya. هي تشكو ألماً في أحد أضراسها وأنا قواي منهوكة. هي تتعرّى، أنا أدخن لأطرد قلقي. الخوف من الفشل معها أرجفني. دفعتُ لها مقدماً ألفي فرنك حتى لا تسوء نيّتها. استلقتْ على الفراش مطمئنة، شفافة. خفت أن تكون مصابة بالزهري. ربما الكتاب الأخير الذي قرأته عن العلاقات الجنسية هو الذي أثّر عليّ. باعدت، مرتجفاً، فخذيها بيدي. شممتُ شيئها. اندفعت إلى أنفي رائحة حيوان ميت. شعَرتُ بالتقيؤ. قالت بانزعاج:

ـ ماذا تظن؟ هل تحسبني قذرة؟

تخيلت المصارين والمَثانة تُبَقْبِقان. قلت:

ـ كلاً. أبداً. لستِ قذرة.

ـ وإذن فلماذا تشمني هكذا؟

صمتنا. قالت:

ـ أتبدأ أم لا؟ إذا لم تكن راغباً الآن فاتركني أذهب. سنتقابل في فرصة أخرى.

قلت لها وأنا أقاوم حتى لا أقيء فوقها:

ـ لا تنزعجي. إن عادة الشم تهيجني جنسياً عندما يعتريني التعب.

ـ لكني لا أريد من يشم لي فخذيّ. لم تختر غير شيئي لتشمه. إنني لست قذرة ولا مريضة. (أضافت): يبدو لي أنك مريض.

نهضت من فوقها وأخرجت الكيس الواقي من جيبي. لم أستطع أن أتوقَّى به. لم أكن قد انتعظتُ بعد. شيئها مفغور وشيئي مرتخ. الكيس الواقي في يدي وحلقي يقاوم حساسية معدتي. ماذا ستقول عني عندما تريد أن تتسلى مع زميلاتها في الحرفة؟ قلت لها:

ـ نورا، سنقلب الحذاء.

قالت:

ـ أهاه! حتى أنت تريد هذا معي؟ لماذا لم تقل لي ذلك في البداية؟ أمن أجل ألفي فرنك تريدني أن أفعل معك كل ما تريده مني؟

ـ سأضيف لك ألفاً أخرى.

لم تقل شيئاً. قلبت نفسها على بطنها. يبدو أنها معتادة على هذا الفعل. حذاؤها أسمر، ممتلئ. إن لها مؤخرة غلام. هذه آخر فرصة لي معها. ظللت عاجزاً. قالت:

ـ كَفَى. لست أنت الأول الذي تَمُرُّ به هذه الحالة. لا بد أنك متعب جداً أو أنك تفكر في فتاة أخرى تحبها.

انسحبت من فوقها بخجل.

ـ صحيح. إنني متعب. لكني لا أفكر الآن إلاَّ فيك.

إنهن حين يُصَبْنَ ببرودهن لا يخجلن كما يحدث للرجال. إن انتعاظنا، نحن الرجال، هو رجولتنا. هن يبقى السِّر في مغاورهن.

نهضت عارية لتغتسل. بقيتُ في الفراش. استدارت إليّ: نهداها صغيران، حلمتاها بارزتان، بُنيّتان. جميلة من الخلف والأمام. أخرجت من حقيبتها قارورة عطر جيد وعطرت عنقها وإبطيها وصدرها. طلبت منها القارورة. عطرت وجهي حتى أطرد الرائحة الوهمية الباقية في أنفي. قبل أن تلبس أخرجت أربعة آلاف فرنك ومددتها لها:

ـ حاولي معي لآخر مرة باللسان.

أمسكت الأوراق الأربع ولم تقل شيئاً. ابتسمت وقالت:

ـ اغتسل على الأقل.

نهضت عارياً واغتسلت. تمددتْ على الفراش واضعة يديها خلف رأسها.

قلت لها:

ـ من الأفضل أن نترك الأمر إلى فرصة أخرى.

ـ ذلك أحسن.

خرجنا من الفندق. قصدنا قاعة شاي مدام بروط. طلبنا كوكتيل ألكسندرا. رجتني أن أكتب لها ثلاث رسائل لثلاثة رجال في الدار البيضاء والرباط ومكناس. أملت عليّ لصديقها نزار في مكناس: «لقد أخبروني بكل ما تفعله هناك مع البغايا القذرات. أنا أعرف ما سأفعله معك عندما أجيء عندك».

اقترحت علي أن نذهب إلى كباريه «طاجادا». في الطريق اعتذرت لها عن إزعاجها في الفندق. قالت بأن وسواساً يستولي عليّ. عندما ذكرت لها بأنها جميلة كذبتني ضاحكة. في الكباري كان عرض الرقص الشرقي قد بدأ. كنت أشرب وأدخل إلى

المغاسل لأفرغ ما شربته. تركتني وحيداً. رأيتها ترقص مع شاب أنيق. كانا يشربان على حسابي. لم أستطع أن أحتجّ. كنت يائساً من أن أحقق معها أية علاقة.

في الرابعة صباحاً أدركت أني قد بذرت أكثر من نصف مُرتبي الشهري. خرجت من الكباريه سكران أسبّ نفسي والعالم. همت في الشوارع باحثاً عن محترفة أخرى أنام معها لعلها تنقذني من عجزي الوهمي. تذكرت يوم طلبت منها الزواج في شاطئ الأطلس. قالت لي يومذاك:

- إنني الآن أمر بفترة تدريب. حين أنتهي... أوه... إنني لا أعدك بشيء. فتش عن فتاة أخرى تتزوجها.

كنت أتناول أدوية مسكنة للأعصاب. ربما رغبة تعلقي بها كانت بدافع ضعفي ووحدتي. كنت أبحث عن ممرضة وليس عن زوجة.

اقتربت منا أليس. قلت لنورا:

- أليس هي التي قالت لي بأنك تشتغلين هنا راقصة.

قالت لأليس:

- اشربي معنا شيئاً.

- فيما بعد.

ابتعدت. سألت نورا:

- ما اسمها الحقيقي؟

- رشيدة. لماذا تسأل عن اسمها؟ هل تفكر أن تحبها؟

قلت لها ضاحكاً:

ـ إن الحب يأتي بلا تفكير. إنها لطيفة.

قالت بعد لحظة:

ـ لقد تعقلتُ. لم أعد كما كنت تعرفني.

ـ صحيح؟ هل أنت اليوم أعقل من تلك الليلة التي سكرنا فيها معاً في كباريه «طاجادا»؟

ضحكت. هذا ما يعجبني فيها. إنها تواجه الأحداث كما لو أنها لم تحدث إلاّ لتسليها.

ـ سَأَلَتْ:

ـ كيف قضيت نهاية تلك الليلة؟

ـ ذهبت إلى فندقي ونمت كحيوان.

استعدت ذلك الصباح الطري. كنت مثل طفل تهدده عقدة الخصاء. ربما لأنني أحببتها قبل أن أشتهيها. هذا ما حدث لي مع ارحيمو الروبيا قبلها. قالت:

ـ راميا قالت لي بأنك ذهبت معها في اليوم التالي إلى نفس الفندق وطلبت نفس الغرفة لتنام معها.

ـ صحيح.

ـ لماذا؟

ـ إنه سرّ.

ـ أنت غريب. (أضافت): سأدخل الآن إلى غرفة التجميل لأغير ملابسي.

نَهَضتْ وانصرفتْ. فكرتُ في راميا. أشتهيك يا راميا. لا أخاف فيك شيئاً. إنك أشفّ وأجمل من نورا الباردة. هزيمتي

أمس معها لم تكن تعنيني أنا بالذات. ربما كانت نورا في تلك اللحظات تفكر في عشاقها البعيدين عنا في مدن أخرى.

دخلت امرأة مسنّة، طويلة، يتبعها الروبيو. دخل سمير المغني. صاح:

ـ ما هذا؟ هل حقيقة أرى أمامي فريدة؟

إلتفتُّ إلى المرأة التي تجلس على يميني، مصحوبة بشاب وسيم. تصافحت مع سمير بحرارة. سألها:

ـ أين كنت؟

قالت المرأة بمرح:

ـ كنت في لندن. من مدريد ذهبت إلى لندن.

ـ جلست المرأة الطويلة والروبيو إلى طاولة فريدة. شفتاها أحلم بهما دائماً في وجه امرأة. القبلة هي تبادل الجراثيم. التعاريف الطبية تخمد شهوتي الجنسية. حلمت طويلاً بوجه هذه المرأة العائدة من لندن والتي لم أرها من قبل. قالت فريدة لسمير المغني:

ـ إذا لم تحسن هذه الليلة غناء «العين الزرقا» سأرميك بهذه الكأس.

شربت من كأسها. قام سمير بحركات تمثيلية هزلية مُشَوِّهاً وجهه. قهقهت فريدة. إنها تَتَسلى هذه المرأة العائدة من لندن. بدأت القاعة تمتلئ بالرواد. التفت إليّ سمير وقال:

ـ أنت أيضاً هنا.

جلس بيني وبين المرأة. قدمني إليها وإلى زميلها. قال بلهجته التمثيلية:

ـ كنا نعمل معاً في أحد مراقص مدريد. كنت أضرب لها الدربوكة. إن فريدة وبديعة التي تعمل في مرقص الكتبية هما أحسن راقصتين في طنجة. جسمهما من البرونز.

ضحكت فريدة قائلة:

ـ كفى يا سمير. اشرب معي كأساً.

نادى سمير على النادل وطلب كأساً فارغاً. قال:

ـ ذات مرة حدث في مرقص «الحمراء» أن انفكَّ الزّنار الذي يشدّ ثوب رقصها. كانت ترقص رقصة (حواء في الغاب). لم تنسحب. انخفضت الأضواء واستمرت ترقص. ها ها ها.

جاء النادل بالكأس وملأت له فريدة من زجاجة الويسكي فوق طاولتها. شرب كأسه دفعة واحدة ونهض. قال:

ـ الآن سأستعدّ للغناء.

انصرف. قال الروبيو للمرأة المسنة بلهجة قاسية.

ـ جيري، إن علبة السجائر وضعتها في حقيبتك.

فكرت: إنه طفل هذا الروبيو. امتدت يد المرأة إلى الحقيبة فوق الطاولة. سقطت الحقيبة على الأرض. قال لها الروبيو بانفعال صبياني:

ـ إنك دائماً غير حاذقة عندما تلمسين الأشياء.

اعتذرت له المرأة بلطف وهي تنحني لالتقاط الحقيبة. أضاف الروبيو بصوت مزعج:

ـ اتركي لي ذلك. سأقتل الجميع من أجل أن أرضيك إذا رأيتك فقط تلزمين هدوءك.

قالت فريدة:

ـ روبيو، تصرف بكياسة مع هذه المرأة. إنك وقح.

ضحك الروبيو:

ـ إنني أمزح فقط معها.

ـ المزاح لا يكون هكذا.

رأيت نورا تخرج من غرفة التجميل. كانت مصبوبة في قفطان مغربي أحمر. أرسلت لي قبلة في الهواء. تصورتُ حركاتها مثل بقرة تحرك رأسها أو ذيلها لتطرد عنها الذباب. وقفتْ إلى المشرب قرب ثلاثة رجال. الموسيقيون المغاربة يشدون أوتار آلاتهم. عازف العود يوقع تقسيماً. اقترب سميرَ من الميكروفون وبدأ موالاً لبنانياً. كان يقلد فهد بلان. بعد الموال قال:

ـ الآن، سيداتي سادتي، سنقدم لكم في البداية «العين الزرقا». أطلب من زميلتنا فريدة، الراقصة المعروفة، الموجودة معنا هنا، أن ترقص على إيقاع هذه الأغنية الشعبية.

بدأ الإيقاع الصاخب. قفزت فريدة إلى القاعة حافية القدمين. سالومي ورأس يوحنا يسقط في الصينية. اقتربت أليسْ وهمست لي:

ـ لا تلم نورا على تصرفاتها معك هنا. يجب عليها أن توزع قبلاتها على كل من يدعوها لتشرب معه.

ابتسمت لها. قلت:

ـ أنا لم أقل شيئاً. (أضفت): هل أنت تتساحقين معها؟

ـ أنت خبيث.

اقتربت منا فريدة تتلوى راقصة. تذوب رقّة. الرواد يلتفتون إلى مكاننا مبهوتين. أردت أن أقول لفريدة: «أرجوك، حَوِّلي عنا تلك الأنظار الضاحكة إلى مكان آخر». لم أجرؤ. إنني لا أفوه بكلمة واحدة من ألف كلمة أفكر فيها. سحبت أليس نفساً عميقاً من سيجارتها ونفثت الدخان بلذة. فريدة تمنح الرواد بسماتها ثم تسرقها منهم بدلال. جذبها رجل سكران. استسلمت له. باس أسفل بطنها. أفلتت منه. تصورتُ ثوراً يشم مؤخرة بقرة نافرة منه. ضجت القاعة بالضحكات والتعليقات الماجنة. صديقها الشاب ينظر إليها بانزعاج. نظرت إلى جيري. جسمها كشجرة ميتة، تسند رأسها بحب على كتف عشيقها الغلام. سمير يجيد الغناء. الموسيقيون يهتزون مثل كراكيز مع آلاتهم ويرددون مع سمير لازمة الأغنية بأصوات مبحوحة. ينظفون أصواتهم قبل أن يردّوا اللازمة. نديماتُ المرقص يستسلمن لقبلات زبنائهن. الجميع يحققون زمنهم في اللذة تخيلتُ أن زمنهم برميل ضخم. مرحهم يسيل من خلال ثقب في قاع البرميل. مستنقع الزمن يتأسَّنُ حول البرميل.

انتهى سمير من الغناء. هتف صوت:

ـ رقصة البطن!

ـ نعم، رقصة البطن!

ـ البطن!

ـ البطن!

ـ البطن!

استأنفت الجوقة لحناً شرقياً. جاء سمير عرقان وجلس إلى جانبي. قال لي:

ـ فريدة ستجعلهم يتلذذون في الخفاء هذه الليلة. أقسم لك أن معظمهم سيستمني على رقصاتها حتى ولو كانت إلى جانبه امرأة في الفراش.

أفرغ كأساً من زجاجة الويسكي. خطت فريدة خطوات سريعة إلى طاولتها على الإيقاع. شربت كأسها دفعة واحدة وهي ترقص ثم ابتعدت راقصة وعلى وجهها ابتسامة مثل رمانة مشطورة. جسمها كله محموم. تفرض نفسها على الرواد. نسوا أنفسهم فيها. أنا أيضاً معجب بكل حركة تقذف بها في الهواء. مرَّت قدام طاولتي إحدى نديمات المرقص. قلت لها:

ـ تعالي. إنني أعرض عليك كأساً.

ـ أنا مصحوبة. فيما بعد سأجيء عندك وأشرب معك حتى الصباح إذا شئت.

قال سمير:

ـ اسمها جميلة.

ـ تعرفها؟

ـ أعرفهن كلهن. إنها من تطوان.

ـ لم يسبق لي أن رأيتها.

ـ حديثة الاحتراف. لا يروقها في الرجال إلا مالُهُم. تفضل الشيوخ على الشباب. يلوثون لها فخذيها ولا يدفعون لها حتى ثمن اغتسالها في حمام عمومي. أحياناً يعاملونها بخشونة.

كانت فريدة تطير راقصة. كل واحد يحاول أن يمسك السمكة في البركة. بلغت فريدة لحظة الذروة في الرقص. اقتربت من الدرابكي. قذفت بطنها إلى الأمام. في بطنها أرنب ينفلت من

اليد. قُبض على الأرنب في بطنها. الأرنب يلهث. توقيعات الدرابكي خفيفة شبيهة بنهاية النبض في جسم. أفواه النظارة فاغرة. الأرنب المقبوض يخفق. يتحفز للانفلات. ينفلت. يقفز. العيون المبهورة ترمش، تفيق، تطارد الأرنب في بطن فريدة. لازمة اللحن تعود. يبرد الدفء اللذيذ. تخبط فريدة بيديها في الهواء. تنحني، تستدير هنا وهناك. تصفيق وصرخات إعجاب. تمد لهم ذراعيها. أشعر بحواسي تنزف. نظرت إليها وفكرت: امرأة في بطنها أرنب مُطارد، تعرف كيف تجعل الناس يفقدون وعيهم في أرنبها حتى تشاء هي أن تعيدهم إلى وعيهم. أرى نورا الآن في أحضان رجل. إن شعوري مُوَزَّع. أشتهي ولا أحب وأحب ولا أشتهي. أغار على من لا أرغب في امتلاكها. أريد شيئاً ما لا لذاته إنما لما يمكن أن يثيره في الآخرين من انطباعات تلذ لي رؤيتها. أرى نوراً تدخل غرفة التجميل. فريدة تتحدث مع المعجبين بها. الموسيقيون يُصَوِّبون أوتار آلاتهم. سمير يتحدث مع جميلة. ناديته. اقترب. ضحك بصخب. سألته:

ـ هل جاء دور نورا؟

ـ نعم.

ـ ألا ترقص جميلة؟

ـ لا تعرف كيف ترقص حتى في الفراش. إنها تتصور نفسها كما لو كانت عارية إذا هي وقفت أمام الجمهور. لا تروق إلا عن بعد. إنها مجرد جسم. هذا هو أسبوعها الأول في هذا المرقص. كانت متزوجة في تطوان. يشاع عنها أن زوجها ضبطها تمارس الحب مع امرأة فطلَّقها. في يومها الأول هنا بدت للناس كطفلة يتيمة. جلست في ركن من القاعة تتأمل الأشياء. انتظرت ما

سيحدث لها مع الرواد. قال لي مدير المرقص:

ـ اذهب وحرك تلك الدمية وإلاً سأضطر إلى طردها من العمل.

قلت لها:

ـ تحركي أمام الرواد إذا شئت أن تحافظي على عملك هنا.

ـ ماذا تريدني أن أفعل معهم؟

ـ تغنجي أمامهم. أضحكيهم بكل ما تعرفين من حمق. داعبيهم في ذقونهم. إنهم أطفال كبار أمام النساء. لا تخشيهم. إنهم في النهار رجال وفي الليل أطفال. ليسوا رجالاً إلا عندما يتقاتلون من أجل امرأة. اضربي لهم مؤخراتهم بيدك عندما تحكين لأحدهم نكتة. هناك من لا يضحك للنكتة إلا إذا أصْبَعْتِهِ في مؤخرته. شدي لهم شعورهم. اضربي برفق أسفل بطنهم. إن رغبتهم الجنسية تتيقظ فيهم هكذا أحياناً. إنهم يحبون ذلك.

ضحكنا. من ذلك اليوم صارت دمية متحركة.

ذهب سمير إلى المشرب ليسلي بعض الزبناء المهمومين. جاءت فريدة وقالت لي:

ـ أراك تنام.

اعتدلت في مكاني. فكرت: إن فرح الآخرين يُجَمِّلها ويُصْبِيها. رأيت في عينيها مرآة ذات وجهين عاكسين. أضافت:

ـ اشرب معنا.

رفعت زجاجة الويسكي وصبت لي في قدحي. ذكرتني حركتها، لون المشروب، انسيابه في الكأس بوجوه النساء اللواتي ملأن أقداحي.

زميلها متخشب النظرات. صامت. عزف الجوق لحناً للرقص الشرقي. فكرت: إنها كوبرا بشرية ستخرج من غرفة التجميل لتسلي الناس. رأيت نورا الكوبرا تخرج. توزع بسماتها على الرواد. ترفل في ثوب الرقص الأحمر ـ الذهبي. بعضهم يغمزها ويبتسم لها. آخرون يبتسمون ويضحكون دون أن يلتفتوا إليها. أبوها سكير. عندما أضاعت بكارتها حاول أن يذبحها. مات فأعلنت بداية حياتها الجديدة راقصة مبتدئة.

كانت تهتزُّ مثل شجرة بلا ثمار. قالت فريدة:

ـ إنها تُذهش.

ابتسمت نورا للجميع، تدير يديها كراقصة هندية في معبد. فكرت: رقصها أيضاً غامض. تلوي نصفها الأسفل لَوَيات. خفق بطنها خفقات سريعة ثم جمدت. قالت فريدة:

ـ معظم الراقصات يبدأن أسوأ منها.

انتهى الرقص الشرقي وحل مكان االجوق المغربي كهل إسباني ماسكاً قيثارة يصحبه شاب رشيق. فريدة تلعب بشفتي زميلها بفمها. طريقة تقبيلها سادية. إنها تبدأ برفق ثم تعض. قالت جيري:

ـ دو يو سبيك إنجليش؟

قلت لها:

ـ ييس مدام.

تَدَخَّل الروبيو:

ـ إنه صديق. نحن نتقابل دائماً في البيتي سوكو ونجلس في مقهى سنترال.

تكلمتُ:

ـ إن الروبيو شاب طيب.

قالت المرأة:

ـ من أجل ذلك أعتبره مثل ولدي.

ثم مدت يدها المعروقة وتخللت أصابعها شعره الأحمر. مدت له علبة سجائر. فكرت: إنه طفلها المدلل. نحنح الفتى الإسباني في الميكروفون:

ـ في البداية سنقدم لكم أغنية البوروم بوم بيرو.

كنس العازف أوتار قيثارته بأصابعه، ثم وَقَّعَ اللحن. غَنَّى الفتى. قدماه تضربان الأرض بعنف. نقلات إيقاعية خيلاء. راقص في القرن التاسع عشر في مدريد. ينشر يديه. يتساءل عن حبه وزهوِّه وشبابه. فكرت: لم يعد الحب يدهشني. قالت فريدة:

ـ أولي نينيو! !Ole! Niño!

بادلها الفتى المغني نظرة شكر. قالت جيري:

ـ أولي! ماي بوي.

كعباه العاليان الرفيعان يصخبان في تتابع سريع. رأسه يتدلى، يهتز بقوة. رفع رأسه ونشر ذراعيه شاكراً حماس الرواد له. نظَّف صوته في يده المكورة ثم قال:

ـ والآن إليكم رقصة الفاندانجو الغجري.

صاح الرواد:

ـ فيفا طومادري! !Viva Tu madre!

فكرت في ابتهاجات إسبانيا: الغجر في غرناطة ورقص الثور

ونجو على إيقاع الدف في الليل والخفاش يصطدم بضوء القمر. الليليات القرطبية وفتى شريد ولهان يغازل حبيبته في شباك منزلها: (حبيبتي الغجرية ما أطيب قلبها! من قطعة خبز تسرقها تعطيني نصفها). الفاندانجو الأندلسي وراقصة على الطاولة. الفستان تنفتح أجنحته وعيون تسرق لذتها من تحت. الجوقة الجوالة في شوارع برشلونة وسُوَيِّحاتِها. أغنية الوداع تحت الشرفة. قافلة الصبايا الأشبيليات في الطريق إلى عُمْرَة الروثيو. أغنيات أستوريا الحزينة والإيقاع بالمفتاح على المقلاة. ليلة عيد السبت المقدسة في كتالونيا: (طفل في ذراعيها آتية به. طفل في ذراعيها تحمله. المسيح يناديها...) الرعاة يغنون قدام كهوفهم. العميان يرتلون أهازيجهم في شوارع مدريد. رجال ذوو سمات صارمة في سانتياجو. القيثار والقنديل وأغنية كئيبة وزجاجات خمر. رقصة بريما. رقصة بيريكوتي. السيريناتا القرطبية. البوليرو. تشاروس السَّلامانكي. الفاندانجو الأندلسي. لامونييرا في غاليثيا. الأريسكو في الفيثكايا. الخوطا في آراجون. لاساردانا. الفاراندولا في الأنْدُرَّا. (على كُثَيِّبٍ من الرمل سأُطيحك يا طفلة. على كُثيب من الرمل سأطيحك). (تجيبه المتشردة بضربة الرأس، رأس القدم). الخاليو في حانات أشبيلية. رقصة الباراندا المورسيانا. رقصة سان أنطونيو دي لا فلوريدا. مهرجان كوربوس الكاتدرائي. بهلوانية الفالس في شوارع برشلونة. رقصة السيوف في البوينتفدرا. رقصة الأقزام والعمالقة في الأليكانتي. حفلات المغاربة المسلمين في الألكوي. رقصة الأقواس في سان سيباستيان. رقصة الأشرطة في الويسكا والتنيريفي. رقصات. في كل مكان رقصات والنبيذ يهيج الحب ويزيل الحشمة.

دخلت امرأة ثملة وصاحت:

ـ فريدة! حبيبتي فريدة!

تعانقتا. قالت لها فريدة بصوت ثمل:

ـ عالية! حبيبتي عالية!

ـ يعيش من يراك يا فريدة.

تصفيقات الرواد للمغني تطغى على الكلمات. الفتى الممحون ينحني مرات عديدة في ليونة. ينسحب في دلال إيقاعي.

بدأت موسيقى طانجو تنبعث من حاك. سحب الروبيو جيري من يدها النافرة العروق إلى حلبة الرقص. فريدة ثملت. صاحبها يتقبل قبلاتها ناعساً. إلتفتت إليّ باسمة. سألتها:

ـ وإذن فأنت تعرفين جيداً حي سوهو وبيكاديللي.

أشرقت عيناها وسألتني:

ـ هل كنت هناك؟

ـ كلا. إنما سألتك فقط حتى لا أنام ثانية.

ضحكت.

ـ معك الحق. ينبغي أن تقول أو تفعل شيئاً حتى لا تنام. أنا أكره النوم. إنني أعمل في مرقص عمر الخيام في لندن.

صَبَّتْ لي في قدحي. نظَرَتْ إلى جيري المفتونة بالروبيو كمراهقة. تَبَسَّمَتا. فكرت: العالم رقصة صاخبة يرقصها رجل وامرأة وامرأتان تبسمان لبعضهما. وقف شاب ثمل أمام فريدة. قال لها:

ـ تعالي نرقص. تعالي.

مَدَّ يده وقبض على رسغها. صاحب فريدة يلوي وجهه بشكل غاضب. أضاف الشاب:

ـ أنت تعرفين من أنا.

ـ أعرف، أعرف من أنت. سأرقص معك، لكن كفى من هذه الأنانية يا كريم.

نهضت لترقص مع الشاب. صاحب فريدة ينهض ويخرج بهدوء.

عاد رجل من عمله الليلي في الصباح فوجد زوجته نائمة مع رجل آخر في فراشه. ذهب إلى المطبخ بهدوء وأعدَّ لهما الفطور. خرجت زوجته مع عشيقها ولم تعد قط إلى المنزل.

نورا تدخل حلبة الرقص مع شاب. أُحِبُّ الطانجو. أحس فيه ماضياً لذيذاً. فكرت في نورا: أحبها بقدر ما أحب أن أكون محبوباً منها:

جاءت فريدة والشاب يتبعها. سَأَلَتْ:

ـ أين هو؟

صوتها مفزوع. قلت لها:

ـ خرج.

مشت إلى مدخل القاعة. كلَّمها الخادم. عادت وتهالكت على الكنبة. صَوَّتت:

ـ أووف! تعبت من غيرة الرجال.

اقترب منها الشاب وقال:

ـ فريدة، تعالي! إنك نسيتني.

امتدت يدها إلى كأسها وضربت بها على الطاولة. تخيلتُ جندياً بحاراً يسحق قدحه الورقيَّ المشمَّع بعد تناول مشروبه. قالت عالية للشاب:

ـ ماذا تريد منها؟ اتركها عنك الآن.

قام أحد الرواد وابتعد بالشاب الثمل إلى المشرب. جاء حاملاً قدحاً فارغاً آخر ونظف الطاولة. قال:

ـ لم يحدث شيء. الخير فيما حدث.

عادت جيري صحبة الروبيو تفيض سعادة. ألقت نظرة متسائلة:

ـ إنني لا أفهم. ماذا وقع هنا؟

فكرت في شجرة ميتة تحت المطر. قلت لها بالإنجليزية:

ـ لقد ذهب صاحب فريدة، تَكَسَّرَ الكأس وهناك شخص يعرف فريدة قديماً يلح عليها أن تراقصه.

قالت جيري:

ـ بعض الصداقات القديمة كثيراً ما تسبب لنا مثل هذه المتاعب.

صبت فريدة الويسكي والماء في قدحها. شربت بأعصاب ضعيفة. كانت الخامسة صباحاً. لم أثمل. ألحّ الروبيو على جيري أن يغادرا. قالت له فريدة بحدة:

اسمع يا الروبيو، لم يبق في الحساب إلا أنت. دع المرأة واشرب إذا شئت. إنك تجلس مع امرأة تملك هذا: (رفعت يدها وحكت إبهامها بسبابتها) ثم التفتت إليّ وقالت:

ـ مليون ونصف من الفرنكات خسرتها في هذا الشهر بهذا الشكل المزعج، مع ذلك لا أدري أية وسيلة أصرف بها مثل هذه المزعجات.

شربت من كأسي. فكرت: معها الحق. إنني أيضاً مثل الآخرين: أشرب من سخائها بدون مبرّر. كل ما أفعله هو أنني لا أزعجها في شيء وأحاول أن أوافقها على كل ما تقوله. إنها تبحث عن انسجام بين المكان والزمان والناس. أنا أيضاً كنت مفتوناً بهذا الزمكاناس. لكن كل مخططاتي فشلت للانطباق مع هذا الثالوث الوجودي.

آخر الرواد يخرجون. فريدة ثملة، لكنها متماسكة. همست جيري بالإيطالية في أذن الروبيو بكلمات. نهض واقفاً وقال بصوت مزعج كطفل مدلل يرفض شيئاً بعناد:

نْيينْتي! نْيينْتي!

ذهب ووقف بعيداً ينتظر جيري. قالت فريدة:

ـ هذا ما يحدث حين يسهر الإنسان مع الأطفال.

قالت جيري بالانجليزية:

ـ إنه أحياناً لا يطاق.

قالت فريدة:

ـ هؤلاء يولدون ويموتون دون نضج. إنهم أبداً لا يطاقون.

قالت لها جيري بعد لحظة:

ـ هل أَصحبك لتنامي؟

ـ أنا؟ لا حلوتي. ليست لي رغبة في النوم.

نهضت جيري وقبلت فريدة. تأبطت ذراع الروبيو وخرجا. قالت فريدة:

ـ يا للكآبة إذا كنت سأنتهي مع غلام أشقر حين يصير لي عُمُر تلك السيدة العجوز. إن له عمر أحد أفحادها وهي تعامله كعشيق لها.

فكرت: أما أنا فإني سأبدأ في أن أحب وأشتهي النساء دون شقاء. لن تكون لي شهوة يمنعها الحب ولا حب تفسده الشهوة. كل شيء يذهب كما يأتي. لن أنسى نفسي في تفاهة الآخرين. إن العلاقة مع الآخرين وهم. الحنين إلى عبثي القديم يفسد نضج انفعالاتي. الرجال ثيران والنساء أبقار. أنا ثور هذه الليلة ونورا هي البقرة التي ترفض أن أشم رائحتها. أم م م... ! تَفَرَسَتْني فريدة وقالت:

ـ أراك لا تبالي بما يحدث. فيم تفكر؟

ـ أفكر في بقرة بشرية.

ضحكت. بعد لحظة سألت:

ـ وصديقتك نورا أين هي؟

ـ أعتقد أنها خرجت يتبعها ثور بشري. (ضحكت).

بعد لحظة قلت لها:

ـ أنت إذن في إجازة.

انفرجت شفتاها بهزء:

ـ كلا. لست في عطلة. أنا امرأة حمقاء. قبل أن أسافر إلى لندن قال لي رجل كنت أحبه:

ـ ستعودين ذات يوم من أجلي عندما أريد أنا.

سخرت منه، لكن ها أنا قد عدت من أجله. إنه في عمر أبي.

كنت أعتقد أن أبي قد مات. تركني صغيرة عندما طلَّق أمي. حين وصلت إلى طنجة قيل لي بأنه ما يزال حياً في الدار البيضاء. كان الخبر صدمة لي. شعرت بالحزن والفرح معاً. الغريب أن الرجل الذي عدت من أجله كرهته بمجرد أن علمت أن أبي ما يزال يحيا.

نهضت وقالت:

ـ هل ستخرج؟

خرجت معها دون أن أقول لها شيئاً. رشتني عذوبة الصباح. سألتها:

ـ إلى أين ستذهبين؟

نظرت إليّ ماسحة شفتيها بحركة عصبية:

ـ سأذهب إلى البحر لأعوم. بعد ذلك سأذهب إلى الفندق لأنام. زرني في فندق «مارينا» إذا شئت.

إنها تروق ولا تروق لي. قبل أن تختفي لوحت لي بيدها. أقبل سمير. قال:

ـ سنذهب إلى مقهى البيلو Pilo.

ـ طيّب.

هذا المقهى ـ الحان، هو أيضاً مثل معرض هذه الساعة. يستقبل معظم الساهرين الذين تتقيأهم الحانات. لا أحب أن أنظر

إلى وجوه الناس في الصباح: الذين ناموا والذين لم يناموا بعد. وجوههم قلقة. قال لي سمير:

ـ إنك لا تعرف بعد فريدة. إنها تحب الشيوخ، لأنها ترى في كل شيخ تحبه أباها الذي فقدته.

قرب مقهى «نيجريسكو» رأينا فتاة واقفة. سألني سمير:

ـ هل تعرفها؟

ـ لا.

ـ أنا أعرفها. خذها معك إذا شئت. إنها لن تمانع. سأعرفك بها. ليست بعد محترفة.

تبدو لي في حوالي السادسة عشرة. تقدمنا منها. ملابسها أنيقة. لا يبدو عليها أنها سهرت وشربت. صافحها سمير ثم قدمها لي:

ـ الزهرة.

ـ ادريس.

أحسست بيدها دافئة في يدي. قال سمير:

ـ أنا جائع. سأذهب إلى بائع الشواء في مقهى الأطلس.

قلت له:

ـ دعني قليلاً مع الآنسة الزهرة.

ضحك وانصرف. فكرت في فندق «مارينا». فريدة ستطفو في البحر. أنا أيضاً سأطفو.

طنجة في سنة 1967

المستحيل

في الوجود ثغر هائل ننفذ منه، شيئاً فشيئاً، حتى نصل إلى هاوية العدم الكلي.

هكذا قال لها اسماعيل. سنيورا ماري تشفق على اسماعيل حينما يكون حزيناً، وعلى معظم رفقاء أبنائها الثلاثة.

- لا تقلق. عندما تتحسن أحوالك المادية ستكف عن تشاؤمك.

إسماعيل يحترمها عندما تتكلم، لكنه لا يبالي بما تقول. إنها فقط تعجبه لأنها تصغي إلى تذمره من الحياة وسوء حظه في هذه المدينة التي بدأت تضجره.

- ربما، لكن قد يقلقني طموح آخر غير المال. قد لا أكون أبداً محظوظاً في شيء، سواء هنا أو في أي مكان آخر.

- أعتقد أن الحظ سيأتيك. إن الذين يشقون في بداية حياتهم غالباً ما يسعدون في نهاية حياتهم.

لم يرد أن يعارضها. ماذا يهمه من نهاية حياته حتى ولو كانت في منتهى سعادته. قال نايل:

- إن ما تقوله أمي صحيح. كل شيء يتوقف على المال. أمي تعرف دائماً ما تقول.

نظرت سنيورا ماري إلى ابنها الأكبر برضى. لم يكن نايل يحب أن تتحدث أمه مع أشخاص من أمثال إسماعيل وتؤاسيهم في مصائبهم. إنه يحس أن شيئاً من الرضا يُسْرَقُ منه وتهبه لهم. قال لها يوماً بضيق، وهي تحادث صديقاً لرفيق: «ماما، أرجوك، اخفضي قليلاً صوتك. إن كل من في المقهى يسمعك».

فكر فيه إسماعيل: ها هو الآن جالس في استرخاء، رأسه مُنحَنٍ إلى أمام، شكل جبهته منحدر إلى خلف، شعره خفيف مثل ريش عصفور لم يستو بعد، خداه موردان، بشرته رقيقة كأنها لُمِّعَتْ بالبرنيزْ، نظارته سميكة، منذ أيام احتفل بعيد ميلاده الخامس والعشرين.

دخل جان. حياهم بكلمة. صافح سنيورا ماري وجلس قربها نظر نايل نحوه بانزعاج. سألها جان بصوته الخروفي:

ـ كيف أنت اليوم يا سنيورا؟

قالت بفرنسية تشوبها لهجة لغتها الإسبانية:

ـ لا بأس. كل شيء هو بإرادة الله. وأنت يا ولدي، هل أنت بخير؟

ـ لا بأس، شكراً.

ـ والصحة بخير؟

ـ لا بأس، شكراً.

ـ الحمد لله. إذا كانت الصحة جيدة فكل شيء بخير.

ـ الجو رائع اليوم.

ـ صحيح، الجو رائع. ليته يستمر رائعاً أياماً أخرى.

دلك نايل جبهته بأصابعه ثم نهض عابساً. سوّى هندامه، وضع يديه في جيبي سرواله، أبرز صدره إلى أمام وهَزَّ نفسه رافعاً قدميه أمام ـ خلف.

ـ ماما، لنذهب، إن وقت الغداء قد حان.

نظرت إليه دون أن تقول شيئاً له. ربما هي راغبة في البقاء لحظات أخرى. وقف إسماعيل وجان وودعاها. خرجت ونايل يتبعها. إنها في حوالي الخامسة والأربعين. لكن من يراها من الخلف ماشية، واقفة أو مقبلة من بعيد يحسها شابة.

دخلت فضيلة. جلست في استرخاء ونفخت تعبها. لم تُخْفِ بعد شحوبها الصباحي بمساحيقها البسايكديليكية. أخرجت علبة سجائرها الشقراء، أشعلتها بقداحتها الإلكترونية الذهبية. مجّت عميقاً من سيجارتها ونفثت الدخان بقوة نحو السقف. سحبت نفساً آخر وأرسلته دوائر دوامية. سألت إسماعيل:

ـ بم تحلم؟

ـ لا أحلم بشيء.

ـ قل أي شيء ولا تصمت هكذا.

لم يرد أن يقول لها أي شيء. إنه يشتهي رائحة جسدها التي تخلفها في فراشه عندما تنام فيه مع صديقة رفيق. إنها تغريه باغتصابها، لكنه يبلع تحلبه ويكتفي بإحراجها.

أخذ يستعيد في ذهنه ذلك اليوم الذي عاد فيه إلى مسكنه فوجدها وحيدة تنتظر رفيق. فاجأها بصوت قوي:

ـ فضيلة.

اندهشت:

ـ نعم.

ـ أنِت رائعة.

انشرحت باسمة:

ـ آ! صحيح؟ (أضافت): إنك لا تجدني رائعة إلا عندما تكون ثملان.

فكر: ربما صرت كارهاً للنساء. (ركز نظراته على سكين فوق ركام من الكتب التي علاها الغبار والإهمال) ربما سأقتل امرأة جميلة من صنفها وينتهي الأمر. إن مزاج النساء مثلها يغيظني.

ـ إسماعيل، لماذا تنظر اليوم إلى الأشياء هكذا؟ هل حدث لك شيء؟

ـ أووه، كلا. (أضاف): أخائفة مني؟

ـ أنا؟ كلا. ماذا تقول يا اسماعيل؟ أنا فقط لا أحب أن أراك مهموماً هكذا. يروق لي دائماً أن أتسلى معك.

جلست على الفراش مستندة على مرفقيها وهي تتأمله. تحرك ساقيها محاولة الابتسام. لكي تخفي ارتباكها قامت ومرت قدامه. قالت:

ـ رفيق تأخر اليوم أكثر من اللازم. إذا لم يأت فإني حتماً سأتخاصم معه.

استرخى على «المطربة» وأشعل سيجارة. سمع ارتطام جسمها مع باب المرحاض وزعيقها.

ـ إسماعيل! اسماعيل، إنه هناك!

دخلت وذهبت مرتعبة قرب السرير.

إنه هناك!

ـ إنه هناك؟

ـ الفأر. إنك لم تقتله. لماذا كذبت علي؟

ـ إنه فأر آخر. لقد رأيته، لكنني لم أستطع بعد أن أصيبه.

ـ تكذب. إنك لم تقتله. أنت تشفق على مثل هذه الحيوانات القذرة.

ـ أنت حمقاء أم ماذا؟ كيف أشفق على هذه الحيوانات التي تتلف لي كتبي.

ذهب إلى ركام الكتب في الركن وأراها كتابين ومجلات متآكلة حواشيها. تهالكت على حاشية السرير.

ـ لا أصدقك. أنت تحب هذه الحيوانات. لقد وجد رفيق قطعاً من الخبز في المطبخ منقوعة في الزيت قرب فتحة مستودع الخشب الذي تعشش فيه الفئران.

ـ أنت مجنونة كما أرى.

ـ لا أصدقك. إنك تربي هذه الحيوانات. إن رفيق لا يكذب. لقد رآك هنا تلعب مع بنت وردان. رآك أيضاً في نفس هذه الحجرة تلعب مع ضفدعة وتحاول أن تقفز مثلها وتقلدها كلما نَقَّت.

ـ أنتما معاً أحمقان. أرجوك أن تكفي عن هذه السخافة.

ـ لن أجيء إلى هنا بعد اليوم.

رقص إسماعيل في خياله وقال لنفسه: ذلك ما أريده، ذلك ما أتمناه أنت أيضاً تبترين لي صفحات من مجلاتي في المرحاض...

بدأ رفيق يسأم عمله مراقباً العاملين في المقهى ـ المطعم الذي يملكونه. في مدة قصيرة صار صديقاً للخدم. معظم الأحيان يتناول طعامه في المطبخ مصغياً إلى الطاهي المغربي العجوز الذي يحكي له عن حياة طنجة منذ ثلاثين أو أربعين عاماً. قال له أبوه السيد عبد الباقي: «إن النادلين متعودون على الطاعة. يجب عليك أن تعرف أن التواضع معهم يفقدنا شخصيتنا ويجعلهم يتماطلون في العمل ويتصرفون على هواهم. تناول طعامك في المطعم وليس في المطبخ. تكلم معهم بحزم، وبأقل ما يمكنك من الكلام حتى يحترموك».

رفيق يعبد أباه مثلما يعبد نايل أمه. هو يعرف أن أباه عنيد، مستحيل أن يقنعه برأيه. حتى لا تسوء علاقته معه إنفصل عن عمله.

* * *

هبطوا من المدينة الجديدة ليتجولوا هذا المساء في الأحياء الشعبية كما يفعلون مرة أو مرتين في الشهر. فضيلة لبست بلوزة وردية، ملساء، شفافة، تلتصق بجسدها، قَصَّت شعرها على طريقة قُصَّةِ كيلوباترا، جَمَّلَت وجهها بأغلى المساحيق وتضمخت بعطر باريزي رفيع. رفيق ارتدى قميصاً وسروالاً بسيطين. تلك عادته حينما يريد أن يتنزه في المدينة القديمة.

دخلوا سوق «الجوطية» وجدوا وقت المزاد قد بدأ منذ قليل. أصوات السماسرة تنادي هنا وهناك على أثمان الأمتعة البالية والجديدة: كلما مرّوا بركام من الملابس البالية يتوقف رفيق. يمسك في يده قميصاً، سروالاً أو حذاء، يفحص لحظة ثنايا

الأشياء باهتمام زائف، يتكلم عن تاريخ درجة الثوب أو الحذاء ونوعه، يعتذر للبائع ثم يستأنفون التجوال. قالت فضيلة بملال:

ـ لست أدري ماذا يجعل رفيق يجيء إلى هنا ليلمس هذه الأشياء المستعملة دون أن يشتري منها أبداً أي شيء.

قال لها رفيق:

ـ الأمر يعنيني. أنت أغلقيه Toi, tu la fermes[1].

عند أحد مخارج السوق الثلاثة، اقترح أن يدخلوا مطعماً هناك ليأكلوا «البيصر».

ـ لم آكلها منذ شهور. إنها جيدة في هذا المكان. هل تذكر ذلك الصباح الذي أكلناها هنا؟

قال اسماعيل:

ـ أذكر. كان ذلك في حوالي السادسة صباحاً. خرجنا من حان «مونوكل» وجئنا إلى هنا.

ـ أنا لن آكلها ولن أدخل.

قال لها رفيق بحدة:

ـ كُليها أو لا تأكليها، لكنك ستدخلين معنا. هل تسمعين؟

شحب لونها نكّسَت رأسها ودخلت خلفهما. وجدوا في الحجرة الصغيرة القاتمة اللون، القذرة بما فيه الكفاية، خمسة رجال يأكلون البيصر. تطلع الرجال إليهم بفضول. حارت فضيلة في اختيار المكان الذي ستجلس فيه فوق المقعد الواطئ الطويل

---

(1) يقصد فمها، وهو يتكلم دائماً بالفرنسية أو الاسبانية أو الانجليزية، نادراً ما يتكلم بالدارجة المغربية التي لا يعرفها جيداً.

القذر. جلس اسماعيل وجذب رفيق فضيلة من يدها لتجلس إلى جانبه. طلبا فنجانين من البيصر بالزيت والفلفل الحار وخبزاً أسود. فوق الطاولات الثلاث أباريق من البلاستيك. قدم لهما الولد الخادم الفنجانين وملأ لهما إبريق الماء ناظراً إليهم بفضول مثل الرجال الخمسة. أحدهم ينظر إلى فضيلة بسخرية ممزوجة بشهوة. فضيلة تنظر إلى السقف أو نحو الولد الواقف قدام حوض الغسيل. يحني رأسه شارداً أو ينظر نحو المطبخ.

انتهى أحدهم من الأكل وسأل صاحب المطعم دافعاً له ثمن وجبته:

ـ واش هادوك مسلمين؟

ـ الله أعلم.

أكل وشرب إسماعيل ورفيق بلذة، وفضيلة ظلت توزع نظراتها بين السقف والولد والفراغ.

عندما خرجوا، تنفست فضيلة عميقاً وأشعلت بسرعة سيجارة. التفتت إلى خلفيتها كأنما نسيت شيئاً. سألت إسماعيل:

ـ ألم أتلوث؟

تأمل مؤخرتها الصغيرة، المسطحة، كأنه يراها لأول مرة:

ـ لا أدري شيئاً.

وضعت سيجارتها في فمها وحقيبتها في يسراها وضربت بيمناها مرات على ردفيها كما لو كان قد علق حقيقة شيء في ثوبها.

استقلوا، في السوق البراني، سيارة أجرة وذهبوا إلى مقهى «الحافة». جلسوا في ممر الشرفة المطلة على البحر. سحب رفيق

نفساً عميقاً من سيجارته المحشوة بالكيف وقال:

ـ في البدء لم يكن في العالم غير السماء والبحر.

ـ وقبلهما؟

ـ لا تذهبي بعيداً. يكفي السماء والبحر.

خمسة أو ستة مغاربة جالسين على الحصير، تحت شجرة صغيرة، يدخنون الكيف وينكتون وعازفهم يوقع لحناً شعبياً على المندولينا. التفت رفيق إلى إسماعيل:

ـ وأنت، ماذا تقول عن هذا يا عزيزي؟

ـ الحق معك. يكفي أن نعرف أن العالم بدأ ماء وأن الحياة نشأت من الماء.

غنّى أحدهم هناك مصحوباً بالعزف على المندولينا:

يا نفسي يا لغدارة

يا للي ضيعتني

أيامي مشت خسارة

علاش عذبتني...

بدت فضيلة رقيقة جداً هذا المساء في المقهى. تدخن سيجارتها المحشوة بالكيف بنشوة. لمسها إسماعيل بمداعبة. اقشعرت من اللذة وضحكاتها الصغيرة تنفجر الواحدة تلو الأخرى. تختنق وتسعل. أشعلت سيجارة أخرى. قال لها إسماعيل:

ـ اللمس هو أفضل حاسة في الإنسان. أنا لا أتأكد من وجود الأشياء إلا حين ألمسها. الحواس الأخرى تخدعني. انظري، إنك موجودة هكذا (لمسها بلطف) أكثر مما أنت موجودة بدون أن ألمسك.

قالت بدلال مائع:

ـ إسماعيل، أرجوك، لا تلمسني هكذا.

جسمها كله يتدغدغ، يمتص اللمسات الخفيفة التي يوزعها على جسمها. رفيق يتأمل الأفق البحري وفضيلة تستغمي في نفسها حين يلمسها إسماعيل.

جاءت حبيبة من الرباط هاربة من أسرتها. استقالت من عملها في مهنة التمريض لأنها لم تستطع أن تعيش بعيداً عن نايل.

إسماعيل ورفيق جالسان في مقهى كلاريدج يخمران.

ـ إن أبي لا يتصور أبداً زواج نايل بحبيبة. (أضاف): ستقيم عندك، إذا لم يزعجك هذا الأمر. سنحاول أن نقنع نايل أسرع ما يمكن لكي يتخلى نهائياً عنها. سيزورها عندك، لكن أبي سيجبره على أن يدخل منزلنا في الحادية عشرة ليلاً.

لم يستطع إسماعيل أن يرفض ضيافة حبيبة عنده أو يعترض على السرير. إسماعيل مستلق على المضجع المغربي الذي سينام عليه قبالتها. يشرب نبيذاً إسبانياً. المطر غزير، الريح عاتية، حبيبة مستلقية على السرير الخشب في المدفئة يطقطق كلما دفع بعود آخر إلى النار. مطر، ريح، رعد وصمت يقطعه، أحياناً، نباح كلب عنيد، أو نقيق ضفدعة قرب المنزل. تململت في الفراش. سألها:

ـ ستنامين الآن؟

ـ نعم.

تمددت على جانبها الأيمن قبالته. اصطففت إحدى نوافذ الجيران في الطابق الأعلى. المطر يغزر. تحركت. جلست وسألت:

ـ ماذا هناك؟

ـ لا شيء.

ـ مثل هذه العاصفة لا تدعني أنام.

ـ أخائفة أنت؟

اضطربت متطلعة إليه:

ـ كلا. ممَّ أخاف؟

ـ ربما تخافين من شيء.

ـ لم آلف بعد النوم في هذه الحجرة.

ملأ قدحه.

ـ تريدين كأساً؟

ـ شكراً.

بعد لحظة سألها:

ـ ألا تشربين قط؟

ـ أحياناً أشرب قليلاً.

ـ خذي كأساً إذن. ربما يساعدك على الاسترخاء والنوم.

ـ شكراً، لا أرغب الآن. هل عندك قصة لأقرأها؟

نهض وبحث في كتبه وأمد لها رواية «الغريب».

ـ هل قرأتها؟

ـ لا.

ـ أظن أنها ستعجبك.

جلس على (المَطرَبة). ينظر إلى بقعة ظل المصباح في

السقف. قالت لي نيكوليت عندما قرأت الرواية:

ـ مرسول شخص غريب، مهموم، لكنه يستحق الشفقة. هل تعتقد أنت في وجود إنسان حقيقي يعقد حياته بهذا الشكل في مجتمع لم يكن يطلب منه هذا التعقيد؟ أعتقد أن كامو أفرغ في رأس بطله كل صرامة الحياة التي عرفها أيام بؤسه في الجزائر.

ـ ربما، لكنه كرس حياته كلها ناظراً إلى الوجود الإنساني بجد وإلى مصيره بكثير من الرحمة.

سألته حبيبة:

ـ وأنت، ألا تقرأ الآن شيئاً؟

ـ إنني أشرب. أنا لا أفهم بوضوح حين أشرب. (أضاف): إنني قلق بعض الشيء.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري.

ـ ألأنني موجودة معك هنا؟

ـ أبداً. إنه قلق شخصي.

بعد لحظة سألها:

ـ أعجبتك بداية الرواية؟

ـ نعم، إن أسلوبها سهل.

في الصباح سألته:

ـ ألن تذهب إلى العمل اليوم؟

ـ لا أشتغل اليوم؟

نظر إلى ساعته العاطلة. سألها:

ـ كم الساعة عندك؟

ـ التاسعة وبضع دقائق. إن ساعتي ليست مضبوطة جيداً. قد تكون التاسعة.

ـ متى سيأتي نايل؟

ـ لا يستيقظ قبل العاشرة.

لبس معطفه. قبل أن يخرج قالت له:

ـ ألن تبقى حتى يجيء نايل ونفطر جميعاً هنا؟

ـ شكراً. سأذهب إلى مقهى «إيسكيما» (Esquima).

عندما عاد، في المساء، وجد سينورا ماري وحبيبة تتناولان الشاي الأسود بالليمون وحلويات في علبة ورقية مذهبة. لاحظ توترا مكتوماً على ملامح حبيبة. فكر في سنيورا ماري: إنها سيدة الموقف مع حبيبة.

قالت:

ـ لم أكن أتصور أنك تملك كل هذه الكتب.

ـ أنت ترين.

ـ وهل تجد الوقت لقراءتها كلها؟

ـ مستحيل.

ـ وإذن فلماذا تشتري منها أكثر مما تقرأه؟

ـ لأني مهووس بشراء الكتب.

ـ هزت رأسها مبتسمة.

ـ إني أرى. (أضافت): إن لديك هواية جميلة تسلي بها نفسك. إن الكتاب هو خير صديق، لكن ينبغي لك ألا تفرط في

قراءة الكتب الصعبة حتى لا تسوء صحتك. إن الذين يفرطون في قراءة الكتب الصعبة لا ينتهون نهاية سوية.

ابتسم لها وضحك بجنون في خياله. بعد انصرافها فار غضب حبيبة على أسرة نايل:

ـ إن أسرة نايل مثل سردين نتن.

ـ إنهم هكذا.

ـ لقد ضحيت بكل شيء من أجل نايل. إن أسرته تعرف جيداً علاقتي معه منذ أربع سنوات. هل يعتقدون أني سأظل أسليه ريثما يعثرون له على فتاة من أسرة غنية مثلهم؟

ـ إن أمثالهم يفكرون هكذا. كيف تصرف معك نايل هذا المساء؟

ـ كالعادة، مكث حتى العاشرة. إنه لا يستطيع أن يغير أي شيء.

أشعلت سيجارة بتوتر ثم قالت:

ـ لقد بدأت أكرهه. إنه طفل كبير.

صبَّ لنفسه كأساً. طلبت منه أن يملأ لها كأساً. تطلعت إليه بود وهو يمد يده لها. نظر إلى «الغريب» قربها. جلسَ على حافة السرير وسألها:

ـ أعجبتك الرواية؟

أمسكت الكتاب وقالت:

ـ آ. . . لقد أقلقتني تصرفات البطل. إنه سيء الحظ. لا أعتقد أنه قاس، لكنه عنيد. أعتقد أنه يحب الناس أكثر مما يحب نفسه.

قال بمزاح:

ـ هل تستطيعين أن تعيشي مع إنسان مثله؟

فكرت وقالت:

ـ لا أدري. (ابتسمت) هذا شيء آخر.

تلاقت نظراتهما. ابتسما معاً.

ـ إنني غبية.

ـ لماذا؟

ـ لا يهم. إنني غبية وكفى.

ـ إنها الظروف.

ـ أنا أتفاءل أكثر مما ينبغي. كل ما يحدث لي يبدو عادياً في البداية ثم يحدث ما لا أتوقعه.

ملأ الكأسين.

ـ إن لك يداً جميلة.

ـ إنها مُجرَّد يدٍ.

ـ هل سبق له أن وعدك بالزواج؟

ـ طبعاً، وإلا فلماذا أبقى معه أربع سنوات.

في المساء وجد إسماعيل رفيق وفضيلة يشربان ويضحكان كطفلين في مقهى زاكَوره. جلس معهما وطلب كأس نبيذ. قال له رفيق:

ـ نايل سافر إلى لندن. نعم، هذا ما قرره أبي.

ـ وحبيبة؟

ـ ستفعل بنفسها ما تشاء. سيبقىٰ هناك حوالي ستة أشهر ليتعلم

الإنجليزية. إن أبي يفكر بعد رجوعه أن ينيبه عنه في إدارة حسابات فندقنا.

ـ إنها تعيسة ووحيدة. قد تحدث لها صدمة نفسية عندما تعلم بسفره.

ـ لتلحق به إلى هناك إذا شاءت.

قالت فضيلة:

ـ إنها قذرة.

سألها إسماعيل:

ـ لماذا هي قذرة؟

ـ لأنها تتكلم بسوء عن أسرة رفيق. أنا أيضاً تتكلم عني بسوء. في السنة الماضية، عندما تخاصمت مع رفيق ورحت إلى باريس، قالت لصديقة من الرباط أعرفها جيداً بأني ذهبت إلى هناك لأقحب. هل تعتقد أن هذا معقول؟

ـ لا أعلم شيئاً عن هذا. معي أنا لا تتكلم لي إلا عن سوء حظها.

سألته بسخرية:

ـ وماذا تقول لك عن نفسها؟ قل الحقيقة يا إسماعيل.

ـ تقول بأنها شقية وأنها ندمت على استقالتها من عملها من أجل نايل.

قالت بخبث:

ـ أهذا كل شيء يا إسماعيل؟ إنها تكذب. ليس هذا كل ما تفكر فيه. لقد تحدثت لي عنها تلك الصديقة الرباطية التي تعرفها

جيداً هناك. إنها تريد أن تصير شيئاً مهماً على حساب أسرة نايل. إن أمها تعمل غسالة في المنازل وأباها سكير عاطل وأخاها صعلوك.

ـ وما ذنبها هي؟

ـ لقد كذبت على نايل عندما سألها عن أسرتها.

ـ إنني أفهم الآن.

ـ أحسن لها أن تعود إلى الرباط وتبحث عن حياة تلائمها.

قال رفيق:

ـ إن أمي ستزورها غداً لتعطي لها بعض المال لكي تعود إلى الرباط.

قالت:

ـ نايل لم يحبها قط. إنها تعرف ذلك، لكنها تطارده أيضاً أينما ذهب.

قال له رفيق:

ـ لماذا تهتم بها أنت إلى هذا الحد؟

ـ لأنها شقية.

قالت بخبث:

ـ أنقذها إذا استطعت.

أضاف رفيق:

ـ إنها قد تصير رفيقة جيدة إذا عثرت على من يلائمها.

أدرك إسماعيل أنهما يهزآن به.

ـ الأمر لا يتعلق بي. نايل هو الذي وعدها بالزواج وليس أنا.

قال رفيق:

ـ إنها تكذب. نايل قَصَّ على أمي كل شيء. إنه لا يستطيع أبداً أن يكذب على أمي. أنت ربما تعرف هذا.

ابتسم إسماعيل بسخرية وقال:

ـ إنني أفهم.

قال رفيق:

ـ لقد أجهضت مرتين. لعبة الطفل هذه عند النساء لم تعد تجدي اليوم.

سألته فضيلة:

ـ ألم تقتل بعد ذلك الفأر؟

ـ قتلته حبيبة، لكن فأراً آخر ظهر. إنه أسوأ فأر رأيته حتى الآن. لا يخاف كثيراً مثل الفيران. فأر أحمق. إن الفأر السابق كان أعقل من هذا الأخير الشرس والعنيد.

قالت بانبهار:

ـ صحيح؟ حبيبة بنفسها؟ ليس صحيحاً ما تقوله.

ـ وماذا في ذلك من غرابة؟ إنه مجرد فأر صغير.

قالت بخبث كأنها تذكرت شيئاً:

ـ آ. . . ممكن. لا بد أن تكون معتادة على قتل الفيران.

قال إسماعيل بهزء:

ـ لقد رأت أيضاً بنات وردان ولم تخف منها.

تقزز جسدها كله:

ـ إنها متعودة على كل شيء. (أضافت): لا بد أن تبحث عن

سكنى في طابق علوي يا إسماعيل. إن المساكن الأرضية دائماً معرضة لمثل هذه الحيوانات والحشرات القذرة إلا إذا كنت تحبها.

أدركت أن إسماعيل ينظر إليها باحتقار. نظرت إلى ساعتها:

ـ أوه، رفيق، إننا تأخرنا. إن جان ينتظرنا.

عرض رفيق على إسماعيل أن يصحبهما عند جان. قال إسماعيل:

ـ لا أطيق مزاجه.

ـ إنه اشترى نوعاً جيداً من الحشيش.

أضافت هي:

ـ صحيح، إن جان اشترى اليوم نوعاً باهظ الثمن. لقد زَيَّن أيضاً شقته بأثاث جديد فاخر.

قال رفيق:

ـ إلحق بنا إذا شئت.

طنجة في يناير 1967

نسيج العنكبوت

منذ لحظة وهو يردد بصياح: أنا إسكاف. أنا إسكاف من العرائش. من يذكرني اليوم في طنجة؟

يترنح. ينظر هنا وهناك. يضحك. يترنح. يدخل يديه في جيبي سرواله. ويخرج بطانيتيهما الممزقتين ويصيح: ما عندي غير الثقوب. ثقوب. ثقوب.

معظم رواد مقاهي الساحة يتأملونه بغضب واستنكار. يذهب ويقف في وسط الساحة. يبتسم ويضحك. يغمز المارة رجالاً ونساء. يترنح باستمرار. يتأمل نفسه. تسقط أمامه علبة صفيح فارغة. يقول للطفل:

- خلّها لي.

يقذفها للطفل. يتقاذفانها مرات. يصيح رجل في الطفل:

- خذ علبتك واغرب من هنا.

يبصق شاب على وجه علال. يمسح وجهه بكم سترته شاتماً الشاب. يبصق الشاب مرة أخرى على وجه علال. يغمزه علال راسماً بيديه في الهواء تشكيلاً مُكَوَّراً. يذهب إلى شرفة مقهى طنجيس. يعطيه رجل أجنبي سيجارة. يسمح له أيضاً أن يشرب بقية ما في زجاجة مشروبه البرتقالي. يدنو منه الشاب ويقول

بهياج:

ـ امش من هنا. لماذا تسكر في رمضان؟

يضحك علال. يلكمه الشاب بقوة على وجهه. يقع علال على حاجز السطيحة الحديدي ثم يتدلى جسمه ويسمع ارتطام رأسه على الأرض. تفور شرايين من الدم من رأسه بغزارة. يقول رجل للشاب:

ـ حسناً. إنه يستحق أكثر من ذلك.

تُسمع عبارات مِثْلُها من معظم الرواد. يقول الشاب بزهوٍ منسحباً ببطء:

ـ ابن الكلاب. لا يعرف الواحد حتى من أين يجيء أمثالك إلى هذه المدينة السعيدة.

ـ إيه أنت. انتظر. ألا ترى كيف يسيل دمه؟

يقول الشاب باضطراب:

ـ كلب. لا يحترم حتى هذا الشهر المبارك. سأطلب سيارة الإسعاف.

يحيطه حشد من رواد المقاهي والعابرين.

ـ انتظر حتى يجيء رجال الأمن.

ـ إنه يحتضر.

ـ معك الحق، إنه يموت.

ـ إنه يهمد.

ـ مات.

ـ صحيح، مات.

ـ مسكين! هذه مشيئة الله.

ـ اطلبوا الشرطة بسرعة.

لم يستطع الشاب أن ينفلت من حلقة الزاحمين وهم يتكاثفون حوله.

ـ أنتم شاهدون على أنني لم أقتله.

ـ لكن لم يقل لك أحد أن تضربه هكذا.

يسمع صوت نادل مقهى طنجيس:

ـ إن أمثاله لا ينهضون إذا سقطوا.

يغمض له رجل عينيه. يغطي له آخر وجهه بمنديل. يَحْمَرُّ المنديل. يصير قِناعاً أحمر. يظهر الطفل من جديد وفي يده علبته من الصفيح. يصيح فيه رجل:

ـ إذهب إلى منزلك.

يصرخ الشاب بصوت باك:

ـ أنا لم أرد أن أقتله.

يظهر كارلي المجنون في الساحة. ينظر إلى الجمهور ويقهقه بصوت عال وقضيب الكيف يتأرجح في يده. ينبثق رجال الأمن في الساحة.

ـ لم أقتله... لم أقتله...

يقهقه كارلي بجنون. ينهار الشاب بين أيدي رجال الأمن. يرفع كارلي رأسه نحو السماء ويفجر قهقهات بصوت صاخب.

طنجة في 1968

الليل والبحر

انبعث فيها شعور بأن الشاطئ صار لها وحدها. بعيداً عنها شيخ هنداوي يعرج يرمي الخبز المفروم إلى طيور البحر. توقفت. استعرضت بيوت الشاطئ الصغيرة. أغلبها منزوعة أبوابها. الحانات مقفلة كلها. الهنداوي القصير يبتعد خارجاً من الشاطئ نافضاً آخر فتات سلته وسرب صغير يتبعه. رأسه الأصلع مائل على انحراف عاهته. بعض الطيور ما زالت تتبعه خلعت حذاءها ورمته مع حقيبتها على الرمل. بدأ مطر دافيء. القطرات تخترق شعرها. تركت قدميها تلعقهما ألسنة الأمواج. رفعت وجهها مغمضة عينيها. القطرات تتسرب إلى فمها المنفغر. تفعل ذلك بلذة حين تكون تحت المِشَنّ. التقطت حذاءها وحقيبتها ومشت «حفيانة» متأملة آثار قدميها. تعمق حزنها، لكنهُ لا يوحي لها بشيء تدرك معناه في وضوح. عبرت بركة مياه هلامية في الممر الطويل عبر الشاطئ. دخلت حانة الأطلس. طلبت «بلادي ماري». دخلت المرحاض لتجفف شعرها المبتل. في ركن شاب صحبة شابة تنتحب في صمت. يدخن ويشرب ويتكلم بانفعال خافت. يقسم لها بالله العظيم أن نادية ليست إلا صديقة في العمل.

قال الأجنبي، رفيق صاحب الحانة الإنجليزي:

ـ ما أغزر المطر في هذه الأيام!

قال صاحب الحانة:

ـ إنه عام الفيضانات في المغرب.

جلست وداد على المقعد الطويل وتأملتهما دون أن تفهم كلمة من كلامهما. تناظرت هي والأجنبي فابتسما.

وضع الشاب القطعة النقدية في شق الحاكي. كفت رفيقته عن النحيب. بَاسَمها. لاطف شعرها ووجهها ثم احتضن يدها في يده. بدأت الأسطوانة: «يا إلهي! أنا هو الخاطئ، أما هي، أما هي، فلا تدعها تعاني. . .».

فتح الباب بقوة ودخلت زبيدة سكرانة. لها عينا بقرة. طويلة وجسمها مستعد أن يلذذ طابوراً من العائدين منتصرين في الحرب. تباوست مع وداد. وضع لها الحاني كأس نبيذ والسكرية. ملأت ملعقة وحركتها في كأسها. فكرت وداد: إن نبيل أيضاً يشرب أحياناً البيرة ممزوجة بقليل من الملح حتى لا يثمل بسرعة. قالت زبيدة لوداد:

ـ لم أنم منذ ثلاثة أيام أكثر من ساعتين أو ثلاث كل ليلة.

خلعت حذاءها ووقفت عارية القدمين.

ـ هذا يقيني من القيء. إن رأسي يغلي.

تحس وداد أن رغبتها في الكلام تنحبس في حلقها. تفكر في هؤلاء الذين تنام معهم بلا أحلام.

نظرت إلى البحر. الأفق غائم والليل ينزل والمطر يصفع الزجاج. صاحب الحانة ورفيقه يتحدثان. زهرة عاطرة تتبرعم في خاطر وداد الحزينة. إن سحرتها على الأشياء التي أحبتها ولم تمتلكها قَطُّ تُؤلمها. لم تحتمل كأسها فارغة. أومأت للحاني أن

يملأها. برق أعقبه رعد عنيف. انتفضت زبيدة. تبادلت نظرة غامضة مع وداد. البحر والسماء يعنفان. قالت زبيدة:

ـ لا أطيق الرعد.

ظهرت فجأة قطة بيضاء في القاعة. تطلعت إلى زبيدة باستعطاف ومَوَّأت. نظرت إليها زبيدة بخوف. قالت لوداد:

ـ هل ترينها قريبة من القلب؟

اندهشت وداد:

ـ إنها مجرد قطة.

ـ كل قطة ليست دائماً مجرد قطة. كانت أمي تغسل سمكاً وقطة تموء ببراءة حولها. حين همت أن تطردها هاجمتها وغرزت أسنانها ومخالبها في يديها. بعد يومين عادت القطة إلى المنزل. وجدت أمي مبرراً لعقابها. حبستها في حجرة صغيرة. بعد أيام فتحنا لها الباب. شبح يتحرك بصعوبة. لم تستطع أن تمشي. نظراتها مجنونة. منظرها يخيف. قلت لأمي:

ـ سنطعمها ونُشرِّبُها.

صرخت أمي:

ـ أبداً. ستموت جوعاً. إنها مسكونة بالشيطان. لا بد أن نقتله فيها. إذهبي بها بعيداً حيث لا تجد شيئاً تأكله.

وضعناها، أنا وأخي الصغير مصطفى، في سلة وحملناها بعيداً وتركناها في أرض جرداء. طلبت من أخي أن ينتظرني قدامها حتى أعود. قال لماذا؟ قلت سأبحث لها عن شيء من الأكل والماء عساها تعيش. قال: سأقول هذا لأمي.

تركناها وعدنا. هو يقفز ويقذف العلب الفارغة بقدميه وأنا

حزينة على القطة التي ستموت جوعاً. في تلك الليلة أصيبت أمي بتشبح القطة. في الصباح حملنا طعاماً وشراباً أنا وأخي وذهبنا نبحث عن القطة لكي ننقذها إذا كانت ما زالت حية. لم نجدها. حاولت أن أقنع أمي بأن أحداً أخذها ليعنى بها. قالت:

ـ أبداً. لا بد أن تكون قد حلت روحها في الشبح الذي بات الليل كله يُكْبِسُني.

عاشت أمي سنوات بعد ذلك الحادث لكنها لم تتخلص قط من شبح القطة حتى ماتت.

ـ ولهذا تلح عليك أنت اليوم رغبة الانتقام لأمك من القطط.

ـ أنا؟ أبداً، لكن الحيوانات كلها لم تعد تفرحني.

طلبت زبيدة من الحاني أن يملأ لهما كأسيهما. تذكرت وداد قطة ميلود الفارسية. كان أعزب. يطعم قطته الجميلة مما يأكله، يحممها بنفسه، تنام في فراشه. وعندما شاخت ومرضت وبدأ يتساقط شعرها الجميل ملأ حوض الحمام بالماء وأمسكها من قفاها ثم أغرقها ضاغطاً عليها حتى اختنقت.

الأغنية تقول: «كان لي عشرون عاماً حين كنت أضيع الوقت في الحماقات».

أخرج مذكرته وكتب فيها: «الأمل هو الصدفة، والافتراض هو حسن نية. كم من مرات عانقت فيها إنساناً أكرهه من أجل امرأة طائشة نشترك معاً في حبها!».

نظر إلى وداد بحب. سألته:

ـ ماذا تكتب؟

ـ خواطر.

«ليل الناس وليلي العاري. ليل وحشي، مهجور. ليل خنفستين من جنس مثلي تتعاركان حول فأرة ميتة. ليل مجوسي. المجوس كانوا يحبون الليل الكئيب».

كان جالساً قرب النافذة يتأمل النجوم ويكتب ووداد، في ثياب نومها، مستلقية على حافة الفراش ورجلاها على الأرض.

فجأة شعر بقليل من الضجر فكتب: إن الناس يتألمون لأن الله لا يتألم. هو لا يحزن لأنه يعرف كل شيء، أما نحن البشر فنتألم كثيراً من أجل أن نعرف القليل.

لم يعد يعرف كيف ينتقي أفكاره. رشف من كأسه. وداد تشعر بأنها يتيمة أمامه. هو له مستقبله. سينهي دراسته الجامعية ويتخرج أستاذ فلسفة. ستكون له امرأة غيري. أما أنا فسأظل أنام مع رجال لا أحبهم.

خطر لها أن تطرده، لا ولن تراه في شقتها، لكن نبضات قلبها بدأت تضطرب ثم غيرت رأيها ونظرت إليه بحب وهو مستغرق في كتابة خواطره التي لا يفهمها.

نبيل جالس على الرمل مشبكاً يديه على ركبتيه ووداد تقوم بطقوسها المسكنة لأعصابها متمشية على حافة البحر والماء يغمر قدميها.

عادت أكثر حيوية. هو يكتب خواطره على دفتر. فكر فيها: إنها مثل وردة بلا ساق. ثم كتب لنفسه: إن ليل الغاب أفضل من ليل الشاطئ. إني أحب الأصوات: البومة، الخفاش، الجدجد، الضفدع، الثعلب. أما هنا فكل شيء مدفون في هذه الرمال.

بدا لهما البحر منقسماً على نفسه: اللون الأخضر قريب،

الأزرق بعيد. الأفق البحري يشكل حقلاً من الزهور البيضاء المكسوة بالضباب.

قبضت يده على حفنة من الرمل. عيناه في عينها رغبة متوهجة. أغمضهما. أحس بأنفاسها تدفئ وجهه. تراخت يده القابضة على حفنة الرمل. تعانقا. العراء يغريه دائماً بدفء جسدها.

ألقت نظرة على الوجوه المصفوفة على طول المشرب. شاب وحيد جالس إلى المشرب يتكلم مع وردة والمرآة أمامه شاهدة مستشيراً إياها عما يقوله. أحست وداد أنها مشتهاة من جميعهم. سمير ناظراً إليها عارضاً سترته للبيع. تصورتهم مجانين يتناوبون على اغتصابها. الحانة ملأى بالرجال. خمس أو ست حانيات تنادم كل واحدة منهن أكثر من واحد. تشرب كسأها هنا وكؤوس تنتظرها هناك. وداد تكره نفسها حين تكون مشتهاة بهذا الشكل. تخشى أن يحبها أحد غير نبيل. تعتقد أن في الشهوة بعض الحب. إن زبونها يدفع لها ثمناً جيداً. إنه مُسنّ ومتزوج. لطيف معها، لكنه لم يأت هذه الليلة.

وكان نبيل قد كتب في مذكرته: إنني لا أفهم وداد إلا عندما تكون بعيدة عني. إن حياتي لها صلة نفسها بنفسها في البعد الذي يميز أبعادها. فحتى الموسيقى لا أتذوق منها إلا ما كان يأتيني على شكل أمواج أثيرية، والمنظر الطبيعي يبدو أكثر إلهاماً حين يكفي أن أنظر إلى الهوة السحيقة، فيغمرني الدوار ويغسل مخي من الوساوس الملحة عليّ كما يحدث للذين يُعالَجون بالصدمات الكهربائية في المصحات العقلية. إن نفسي الحقيقية تقف على الضفة الأخرى على المنارة الكاشفة بمصباحها المجنون. لقد

سئمت هؤلاء العقلاء مع أنفسهم والمجانين مع الناس.

كانت ما زالت وحيدة عندما دخل زنجي مغربي. كان جميلاً وأنيقاً. جلس مع اثنين إلى طاولة وأخذ يقص كيف أنقذ فتاة من الغرق في الشاطئ. فجأة قال بصوت عال:

ـ إنني أكره الناس الذين لا يعترفون بالجميل.

لم تستطع وداد أن تمنع نفسها من النظر إليه. غمزها بعينه اليمنى تاركاً فمه منفغراً ولسانه على شفته السفلى الممتلئة. فكرت: لقد أوقعني في فخ. ليتني لم أنظر إليه. لم أنم قط مع زنجي.

دخلت طفلة مادة يدها في الفراغ. أشارت لها وداد أن تقترب منها. أمسكتها من يدها الممدودة:

ـ ما اسمك؟

ـ رحمة.

ـ وأين أمك؟

ـ تنتظرني في الخارج.

أعطتها قطعة نقدية وصرفتها بلطف.

رأت وداد يداً مثل غراب تحط على كتفها بمرح. أحست بها تنزلق على ظهرها. إنه أول زنجي يلمسها. نظرت إليه في غموض. ابتسم لها. عيناه فرحتان. خيِّل إليها أنها لن تستطيع أن تشبعه في شيء. كان هذا الشعور يشكل لديها، أمام رجل يشتهيها دون رغبة منها، ليل الأعماق.

ظلت هادئة. براثنه ضغطت على ظهرها ثم قال:

ـ هل أنت مسرورة؟

نظرت إليه دون أن تفوه بشيء. بدا لها كطفل لا يستحق أي عقاب. قبلها على خدّها. أنفاسه حارة ومخمورة. تخيلت نفسها في أكثر الأماكن وحشية. قامت وخرجت وسط نظرات السكارى المفترسة والزنجي يتبعها.

طنجة 1968

الجثة الغريبة

صراخ في الساحة الكبيرة: جسم حي يسقط على الأرض. الناس يصلون من كل مكان راكضين. الجسد المحتضر ينظر إلى السماء المشرقة. عيناه تنطفئان شيئاً فشيئاً. همد.

العاشرة صباحاً. الناس يصلون بسرعة من كل الاتجاهات. الشمس توقظ في الذاكرة ذلك الإله القديم.

ـ لم يعد يتحرك.

ـ لا أحد يستطيع أن يحركه. إنه مات بكل غرابة. حادث مخيف.

الناس في النوافذ، الشرفات، على السطوح، فوق الأشجار. يصلون ويصلون من جميع الجهات، راجلين وراكبين. الأصحاء والمرضى والكبار والصغار، الأغنياء والفقراء. كلهم يدركون أن الجثة غريبة. لا أحد يستطيع الاقتراب منها.

* * *

الحادية عشرة. الجثة ما تزال هناك. كثيرون جالسون الآن. بين حين وآخر ينضم الواقفون إلى الجالسين. عيونهم لا تتعب من النظر إلى الجثة. شرارات تتطاير منها الآن.

يتثاءبون، ينعسون، يشربون مشروبات مثلجة، يأكلون الشطائر

المحشوة، يدخنون، يلوكون العلك، يبسمون، يتغزلون، يضحكون، يتدافعون بالمناكب مزاحاً أو جدياً، يحاولون العثور على مكان مناسب للوقوف أو الجلوس. يذهبون هنا وهناك. يستفسرون عن غرابة الجثة. يختفون في جولة قصيرة ثم يعودون وحدهم أو صحبة الواصلين الجدد.

* * *

الحادية عشرة والنصف. كثير من الموظفين يصلون إلى الساحة مندهشين. خرجوا من مؤسساتهم قبل الأوان ليروا الجثة الشهابية وهي في بداية تشوهها. الشمس كاوية. يجففون عرقهم بمناديلهم وأكمامهم. يتزاحمون بضيق على احتلال الأماكن الظليلة بالأشجار أو تحت أسقفة المتاجر والمقاهي. شيخ يترنح. يسقط على شابة واقفة. نساء يصرخن. أطفال يبكون. رعب شديد يبدو على وجه الشابة.

ـ إنها الدوخة فقط. لا تخافي. لم يمت. يبدو أن هذه الشمس الحارة أثَّرت عليه.

ـ امش إلى منزلك. (يلتفت حوله: أين يسكن)؟ إنك لن تقوى على البقاء هنا تحت هذه الشمس القوية.

الشيخ يتحرك بضعف ويقول:

ـ خلوني هنا. هاتوا لي قليلاً من الماء.

* * *

الثانية عشرة وبضع دقائق. الموظفون ورجال الأعمال يصلون الآن إلى الساحة. بعض الواقفين ينضمون إلى الجالسين. يأكلون شطائرهم المحشوة بلذة.

- لم يكذبوا علي إذن. إنها حقاً جثة غريبة.

- منذ العاشرة صباحاً وهذا الجسم الغريب هنا.

- انظر كيف يرسل الآن البخار الفوسفوري.

- إني أرى.

- هذه أول مرة أرى فيها جثة ترسل مثل هذه الشهب الفوسفورية.

- إنها جثة غريبة.

- أستذهب هذا المساء إلى العمل؟

- ما أظن.

- لكن رؤساءك سيعرفون أنك هنا تشاهد تلاشي الجثة الفوسفورية حتى النهاية.

- حتى هم موجودون هنا. ما أعتقد أنهم سيعودون إلى عملهم. سترى.

- جثة تحرق نفسها بنفسها. من يستطيع أن يترك هذه الظاهرة تفوته؟

- صحيح. إنها ظاهرة غريبة.

- ربما هو نوع «جديد» من البشر.

- من المحتمل.

- ألم يقترب أحد من الجثة؟

- أنت مجنون أم ماذا؟ من يجرؤ؟ تحرق نفسها ومن يقترب منها.

- لكن أحداً لم يجرؤ حتى الآن.

ـ ومن تظنه يجرؤ أن يغامر بحياته أمام هذه الظاهرة.

ـ غرابة.

ـ لماذا لا تحاول أنت؟

ـ أنا؟

ـ نعم.

ـ ولماذا؟

ـ من أجل أن تعرف فقط أهي تحرق أم لا!

ـ حاول أنت الأول.

ـ أنا أعرف أنها تحرق.

ـ كيف؟

ـ انظر. انظر كيف تتطاير منها الآن الشرارت. الغريب هو أن الرائحة لا تفوح منها كما يحدث للجثث المحترقة.

ـ إنها جثة لا تشبه كل الجثث.

ـ ربما ستفوح رائحتها عندما تغيب الشمس.

ـ ما أظن. الرائحة تفوح عادة من الجثث في النهار أكثر مما تفوح منها في الليل.

ـ سنرى.

ـ ربما هي جثة من عالم آخر.

ـ كل شيء محتمل. من يعرف؟

يسترخون. ينعمون بقيلولتهم...

نساء وفتيات يتجمعن بسرعة تحت إحدى أشجار الرصيف. يشكلن حلقة. إحداهن تخلع جلبابها. أربع يتطوعن ليمسكن

بالجلباب. فتاة تخلع معطفها. تمسكه اثنتان من طرفيه. يشكلن غطاء بالجلباب والمعطف فوق النساء المنحنيات.

ـ مسكينة! ليصحبها الحظ.

طفلتها تبكي.

ـ لا تخافي يا ابنتي. أمك معك هنا. إنها بخير. لا تخافي. أنت معنا.

تضمها فتاة. تحملها على ذراعيها. تقبلها وتلاعبها. الطفلة تهدأ. يتجمعن ويتجمعن. يتسابقن ويتسابقن من كل مكان إلى الحلقة النسوية. يقترب طفل من الحلقة. يحاول أن يخترق بنظراته الغطاء النسائي. تبعده امرأة بلطف:

ـ امش من هنا. لا ينبغي لك أن ترى ما يحدث.

ينظر إليها الطفل بعناد ومشاكسة.

ـ لن أذهب.

تحاول أن تبعده بلطف. يبتعد مستهزئا بها. تغضب المرأة.

ـ انظرن إليه. لا يحشم. اقترب مرة أخرى وسترى ماذا سيقع لك.

يتسابقن. يتدافعن يُضَيّقن الحلقة. يتطاولن. يدسسن أنوفهن هنا وهناك. يبحثن عن ثغرة يرين من خلالها كيف يسير الحادث داخل الحلقة. يصلن من كل مكان. الحلقة تكبر وتكبر وتتسع. أطفال أضاعوا ذويهم. آخرون يلعبون الاستغماية. صرخات. بكاء. ضحكات. بحث. ركض. شجار. وع... واع ع... وا ع ع ع...!

ـ صبي! إنه صبي!

ـ كيف هي؟

ـ بخير.

ـ محظوظة.

* * *

الساحة مضاءة أكثر من العادة. ما يزالون يجيئون من المدن الأخرى، القريبة والبعيدة. آلات سينمائية تصور تلاشي الجثة الشهابية. الفوسفور ما يزال يشع منها. أطفال ينامون الآن معانقين أمهاتهم وأقاربهم وآخرون يلعبون. تلاميذ يراجعون فروضهم. أساتذة يحضرون دروسهم أو يصححون لتلامذتهم. رؤساء ومرؤوسون. الجثة الآن شبه مترمدة. الأطراف تبدو مفككة. الجمجمة التي انفصلت عن الجسد تلمع أكثر من كتلة الهيكل العظمي. يفقدون اهتمامهم بتلاشي الجثة البطيء، لكنهم يظلون هناك. يبتعدون في جولة قصيرة ثم يعودون ليحلوا محل الذين مَلُّوا من الجلوس. يتناوب الواقفون والجالسون على الأماكن الأكثر مواجهة مع الجثة. كثيرون يحملون معهم بطانيات، وسائد، أدوات الطبخ وأفران الغاز.

طنجة في 10 ـ 6 ـ 1971

الفردوس الصغير

مكتوب على باب الفردوس الصغير:
(أنا لا أفكر، إذن فأنا موجود)

- أخرجي! لم يبق لك وجود هنا.

تحدق إلى الحارس بحزن.

- لكن لماذا سأخرج من هنا؟

يمصون حليب وعسل بعضهم بعض.

- إن ربَّ الفردوس يطردك من فردوسه.

يشربون خمراً ليس كمثله خمر. لا يتألمون. لا يَشْقَوْن.

- لكن لماذا يطردني من هنا ربُّ هذا الفردوس؟

يشمون روائح زكية ليس كمثلها روائح نشوة. ينزلقون على بعضهم بعض مثل الأسماك في الشبكة.

- ألا تعرفين لماذا يطردك؟

يرقصون. يمصون ويمصون بعضهم بعضاً بلذة. يتكورون على العشب والفرش المنثورة. يتسلقون الأشجار وهم لبعضهم بعض مطايا وسلالم. يسقطون ولا يتألمون.

- كلا، لا أعرف لماذا يطردني.

نشوتهم في الخيام والمقاصير ليست كمثلها نشوة. مُمَدَّدون. مرفوعون.

ـ لأنك تفكرين وتحلمين. منذ زمن طويل وأنت هنا حزينة.

ـ لا أعتقد أن رب الفردوس يطردني من أجل هذا. ليس لومتي إذا كنت شقية.

يأكلون ويشربون ما يشتهون ويتخيرون. الأكواب تفرغ وتفيض من جديد. لهم كل نهارهم وليلهم.

ـ إن رب الفردوس يغضب على كل من يفكر ويحلم ويحزن في فردوسه.

ـ لا أعتقد أنه قاس إلى هذا الحد رب هذا الفردوس. إنه متساهل.

يركضون. يستغمون. ينكشفون لبعضهم بعض. يَسْبَحون. يستظلون. يتأرجحون. يستغمون. يضحكون ويطربون.

ـ كلا، إنك مخطئة. إنه عادل وليس مُتساهلاً. كيف يريدك في فردوسه وأنت لم يمسك هنا أحد منذ زمن طويل. لا نهار لك ولا ليل.

لا يفكرون. لا يقرأون ولا هم يكتبون. لا يحلمون أو يَأْلَمُون. لا يقلقون ولا هم حائرون. إنهم مطمئنون.

ـ لقد كان معي فتى ليس كالفتيان جمالاً.

يشوون الطير. يتراشقون بالفاكهة واللؤلؤ المكنون. يتداعبون بمناديل الحرير والزهر المقطوف. ويل لمن يبقى وحده يفكر ويحلم ويحزن. لا يتعاركون. لا يحسدون. لا يتنافسون. لا يحقدون. لا يخجلون من شيء. كل شيء لهم مباح.

ـ ولماذا لم يعد معك ذلك الفتى؟ ألا تعرفين أنه حرام أن يظل هنا ذكر بلا أنثى وأنثى بلا ذكر؟

ـ أعرف هذا.

ـ وإذن.

ـ إنني سيئة الحظ منذ أن جئت إلى هذا الفردوس.

ـ نحن آسفون. إرحلي إلى عالم الشقاء.

خرجت طائعة وشقية.

* * *

ـ أخرج. لم يبق لك وجود هنا.

يحدق إلى الحارس بحزن. يستعرض سعادة الفردوس التي ذاقها زمناً. يتجلى له شقاؤه خارج الفردوس.

ـ لكن لماذا سأخرج من هنا؟

يشربون حلالاً. يأكلون ما طاب لهم. يمصون كل ما حلا. يخرجون من نهارهم ويدخلون في ليلهم. لهم كل نهارهم وليلهم.

ـ لأنك منذ أن جئت إلى هنا وأنت تفكر وتحلم وتحزن. إن رب الفردوس يطردك كما طرد الذين من قبلك.

لا يتصدقون. لا يتسولون. لا يعملون. لا يتساءلون. لا ذكرى لهم ولا هم نادمون.

ـ لا أصدق أن يكون رب هذا الفردوس قاسياً هكذا.

الأبكار والولدان أتراب لبعضهم البعض. زُغَيْبَاتُ السيقانِ الشقراء الجميلة تلمع في النور الذي لا هو من النهار ولا هو من الليل.

ـ لا بد أن تصدق وتخضع للأمر.

لا يغارون. لا يتحسرون. لا يأثمون ولا يتوبون.

ـ لا أكاد أصدق ولا أنا فاهم جلياً.

لا يسألون عن أهلهم وأوطانهم. لا يذكرون من هم وأين كانوا. لقد جاؤوا كما جاء الذين من قبلهم.

ـ إن ما تقوله لم أسمع به من قبل.

يتوافدون أسراباً على الفردوس الصغير من كل مكان.

ـ ما أتيتكِ إلاّ بما علمت. ما ينبغي لك أن تسألني عما يفعل رب هذا الفردوس بملكه.

رحماء فيما بينهم وما يملكون مُشاع بينهم.

ـ أليس هناك غفران؟

لا يفرق بينهم أصل ولا رتبة. لا خلاف بينهم في لغة أو علم.

ـ لست أعلم منك في هذا الشأن.

ينعمون عرايا مثلما بُعثوا وهم لبعضهم بعض مرايا وهدايا.

ـ لو أنك تخبرني بقليل مما تعلم.

ـ إنك تبعث الملال في النفوس. لا نهار لك ولا ليل.

ـ لقد كانت معي فتاة ليست كمثلها فتاة جمالاً.

ـ لكنها لم تعد معك. من تحسبه باقياً معك وأنت ساهم هكذا؟ إنه عار أن يخلد هنا خليل بلا خليل.

ـ أعرف هذا.

ـ وإذن.

ـ لست محظوظاً.

امتثل للأمر. خرج مغضوباً عليه. قدام باب الفردوس الصغير كانت المغضوب عليها من قبله تنتظر رفيقها في الرحيل. تعانقت نظراتهما. تلامست يداهما. رحلا بحثاً عن فردوس جديد لا نهار فيه ولا ليل، لا رب له ولا حارس.

طنجة في 3 ـ 10 ـ 1971

الزاحفون وقوفاً
(أو العلك والصيف)

الصهد شديد. الذين أتعبهم التجوال ومضغ العلك يتنفسون بضيق. يتثاءبون في ملل. أيضاً أنا متعب. ألوك علكتي بعياء وسأم منذ نصف ساعة. طَعْمُها يُغْثيني. مصابيح المدينة الكثيرة أضيئت قبل لحظة. تبدو مثل حدائق مُعلَّقة. الشارع الرئيسي مَعْرِضٌ لأجمل وأقبح ما يملكه أهل هذه المدينة وزائروها. النافورة في الساحة تبول في حركاتها الثلاث: الحانية والمتوسطة والعالية تصاحبها الألوان صعوداً وهبوطاً. الناس حولها يأخذون صوراً لأنفسهم منبهرين بمباهج المدينة. بعضهم يأخذ وَضْعاً مناسباً بإرشادات من المصور. ما زالت معي ست علكات تكفيني لثلاث ساعات من التمشي في شوارع المدينة.

أوقفتني عجوز مغربية مُجَلْبَبَة، بائسة، متعبة ومريضة. قالت بصوت واهن:

ـ أعطني علكة يا ولدي.

الحوانيت مزدحمة بالمتدافعين لشراء العلك. بعضها خالية لأن العلك نَفَدَ منها. بعض الشبان الفقراء يبيعون العلك في السوق السوداء. أعطيت للعجوز عشرين فرنكاً وقلت لها:

ـ إشري لنفسك علكتين.

نظرت إلى القطعة النقدية في كفها شاكرة إياي وقالت بصوت أكثر رجاء من المرة الأولى:

ـ اسمع يا ولدي، إذا كانت عندك علكة فهي أحسن لي. أنا متعبة ومريضة. حلقي ناشف والدكاكين كثيرة الزحام كما ترى.

ألوك علكتي بآلية وملالة والعجوز تستعطفني ناظرة إلى فمي العالك وعيني الناعستين بالتعب. أضافت:

ـ أنت قادر على التزاحم معهم وأنا لا أقدر على شيء. أنا مريضة يا ولدي.

لهجتها مليئة بالرجاء والحزن. ما قالته معقول. أعطيتها علكة واحدة. أمسكتها مني بيد راعشة وشكرتني. أضفت لها علكة أخرى. شكرتني مرة ومرة أخرى حتى أخجلتني. فكرت أني لو أضفت لها علكة أخرى لشكرتني مرات. لو أني ظَلَلْتُ أمدها بالعلكات الواحدة تلو الأخرى لاستمرت تشكرني عن كل علكة حتى يغمى عليها أو تُجَنُّ أو تموت. تمنيت لو أني أعطيتها العلكتين دفعة واحدة في المرة الأولى. إن الجهد المضني المبذول في شيخوخة بائسة يُكرهني في هذا الوجود، يكرهني. تركتها منشغلة بالعلكتين ومضيت في تجوالي البطيء، الثقيل مثل معظم المتجولين في الشارع والشوارع.

أخرجت من جيبي علكة أخرى ورميت العلكة الطينية الطعم من فمي. التقط طفل متشرد عجينتي نفخ عليها مسحها في كفه نظر إليها ألقاها في فمه كأنه يخاف أن يخطفها منه بائس مثله. قلت له ارمها من فمك سأعطيك أخرى. لمعت عيناه خوفاً وفرحاً. دنا منه

طفل مثله قال له بلهفة ناظراً إليّ وإليّ معاً نظراً وإلى بعضهما وإليّ وإلى بعضهما ثم إليّ وعيناي باسمتان لهما. قال له الآخر آعَثرت على واحدة أعطني حقي منها. أخرج الطفل العلكة الطينية من فمه رماها ناظراً إليها وإليّ معاً باسمين خائفين فكرتُ لا بد لي من أن أظل أشتري علكات وعلكات حتى تنفذ العلكات من جيبي من المتاجر والسوق أو حتى تخور قواي تجوالاً في هذا الشارع والشوارع. شابةٌ تعانق بذراعها العارية الصاري الكهربائي الحديدي. تضمه إليها بساقها وذراعيها. تدور عليه مصغية إلى شاب، عيناها عليه وعلى نفسها والصاري وغيره والأشياء. امرأة جالسة على المقعد العمومي ظهرها لمنظر البحر وعيناها على العجلات، جنبها طفلة تمص أصبعُها أصابعها نساء مُتعبات مسترخيات. ثلاثة فتيان واقفين شكلهم بدا لي مثل مصارين لم تُحْشَ جيداً، يأكلون بطيخة حمراء، يُمسكُ الشطر الأحمر من طرفيه، يَقطُر بلطافة، يشمه يُمرِّر شفتيه عليه مرةً يلحسه بلسانه ومرة، بشفتيه ثم يقضمه كأنه يبوسه. شاب مد موزة كبيرة شكلها مُنتصب لرفيقته. مُبتسماً قال لها هاكي. قالت باسمة خلّني عنك، ليس الآن. قال وقالت ضاحكين وصوت الفرامل والعجلات الأربع سحقت الأرض أمام طفل يعبر الطريق راكضاً. أقول لك هاكي. قلت لك ليس الآن فيما بعد ليس الآن ليس الآن. كما تشائين. سلخ القضيب اللين برفق، مده إلى فمه، خرطه بأسنانه بمهارة جعل له حشفة، ابتعدا عني ضاحكين لاهثين مائعين، توقف الزاحفون وقوفاً. اصطدمت سيارات. صرخات النساء تعالت. رجل صارخ بقوة عارياً يجري مستنجداً بجنون، يلاحقه آخر أكثر جنوناً، شاهراً سكيناً كبيرة في يده. من شرفة عمارة أطلت امرأة

عارية تصرخ برجاء سويلم، إرجع سويلم، إرجع واتركه عنك، إرجع واتركه عنك. أكثر الذين ركضوا خلف شاهر السكين والهارب منه شبان وغلمان. قبالة العمارة يتجمع العلاكون يتزاحمون أكثر فأكثر يلوكون الآن العلك بآلية أكثر عصبيّة. لم يبق معي سوى علكتين. الزحام. خف في ذلك الحانوت قبالتي. عِلْكٌ عِلْكٌ عِلْكٌ قبل أن يعود الزاحمون على العلك والأشياء الأخرى.

غشت 1972

نعل النبي

مزيداً من اللذة والخيال، مزيداً من المال والحيل. متعب، متعب، لكني لستُ مسروراً: تقترب فاتن: بيضاء كالثلج في علبة كالدم. تأخذ أحد دفاتري. تنظر إليّ باسمة. تصيح:

ـ هاي! أغابيمو[1]!

تضيع وسط الذين ينكحون الهواء. الثالثة صباحاً. الملل يُوتِّر أعصابي وأم كلثوم تغني:

فما أطال النوم عمراً ولا

قصَّر في الأعمار طول السهر

زبون أسود يدنو مني: بياض على سواد. يأخذ أحد كتبي ويقرأ: «هذه الحرية المطلقة لها جانبها المأساوي والمتشائم...». وضع الكتاب وسألني:

ـ عم يتحدث هذا الكتاب؟

ـ عن شخص قذر لا يفهم العالم، يزعج نفسه والذين يرافقونه.

---

(1) كلمة اغريقية معناه «حبي».

هزَّ رأسه ورفع كأسه إلى فمه.

ـ أنت أحمق.

فاتن أراها تكتب على ورقة من دفتري. أنا أشرب، أدخن وأفكر في بيع نعل النبي. ينقطع تيار الكهرباء. صيحات النساء. يعود الضياء، صيحات النساء والرجال. أعرض كأساً أخرى على ارحيمو فرحاً بعودة الضوء. تمد لي فمها. تذوب الحلاوة في فمي. تمطط لسانها البنيّ، تمضغ الشكولاته، تضحك ضحكة حمراء. تمد لي فاتن الورقة الزرقاء. أقرأ: «رشيد، هل تعرف الحب؟ أنت تتكلم عن الحب أكثر مما تحب. إن من يجهل الحب قد يجد سعادة في الحب أكثر ممن يعرف حقيقة الحب. إن الحب ليس معرفة، إنه إحساس، إحساس. . . !».

مريم ماكيبا تغني «مالايشه» بصوت أبيض. أكتب أسفل الورقة الزرقاء: «فاتن، أنت فِراشي الأحمر وأنا غطاؤك الأسود. هكذا صرت اليوم أفهم الحب».

أبحث عنها: بحّار أجنبي يمص جرح وجهها، تعانقه بيد وتريق كأسها وراءها باليد الأخرى. تمد لي ارحيمو تُوتَها. أعرض عليها كأساً أخرى. مزيداً من الإحساس باللذة، مزيداً من الحيل والخيال. لحن تلو لحن، تتوالد الأصوات وأنا أفكر في بيع نعل النبي. أهي غباوة منه أم هي ثقة؟ يصعب علي، أحياناً، أن أميز بين الغباوة والثقة. إنه هو، هو الذي اخترع هذه الأسطورة السوداء. يريد أن. . .

تقتربُ مني سوداء، بيضاء شقراء. أمد لها الورقة الزرقاء، تنظر إليّ لحظة، تبتسم، تصيح:

ـ هاي! أغابيمو. زويم[2].

تأخذ الورقة الزرقاء. أفكر فيها: تخلق المتاعب. أنظر إلى شفتيها الرفيعتين كجرح ملتئم. أتذكر قول الشاعر الهندي ميرزا أسد الله غالب: «للميتين عطشاً أنا الشفة اليابسة». إنها تبحث عن الشوق في حزن عميق. ما يعجبني فيها هو أنها ما زالت تؤمن بأن العالم لم ينته بعد صنعه.

ارحيمو ولطيفة تتخانقان. مثل قطتين تموءان. مريم ماكيبا تغني بصوت أبيض وارحيمو تقبض على شعر لطيفة الأسود. تطيحها على الأرض. تركل وجهها. تصرخ لطيفة. ينزف الدم. تختلط الألوان في ذهني. تضع أمامي فاتن الورقة الزرقاء وتذهب لتشارك في المفارقة. أقرأ على الورقة الزرقاء: صحيح. أنا أفرش لحمي، لكني لا أحس بالافتراس. أتمنى أن أكون كفنك في قبر بلا بعث.

«فيكَون» يغني بصوت أبيض: «آوت سايد ويندو». أشجار اللوز تزهر في ذهني ومدى من الثلج لا ينتهي وأنا خلف النافذة أتأمل الفراغ الذي لم يُملأ بعد.

ارحيمو ولطيفة تخرجان من حجرة الماكياج. تتصالحان مثل طفلتين. تتعانقان ضاحكتين. ترقصان باسمتين. أدخن وأصفع في خيالي تلك الوجوه التي لا تروقني. ركلة لهذا، صفعة لذاك، لكمة لذلك هنالك. الانتصار الخيالي يهدئ أعصابي. غداً سأبيع نعل النبي. سألت فاتن:

ـ لماذا تخاصمت لطيفة وارحيمو؟

(2) كلما اغريقية معناها «حياتي».

ـ ارحيمو أخبرت الزبون الذي كان يشرب مع لطيفة أنها مسلولة.

ـ وهل هي مسلولة؟

ـ نعم، لكنها تقول بأنها شفيت.

* * *

قال الشيخ الانجليزي:

ـ إنه ألذ كسكس أكلته حتى الآن.

نظرت نحو جدتي الحانية رأسها. قلت له:

ـ إنه كسكس مكة. أخت جدتي ترسل لجدتي كمية منه كل شهر.

نظر إليّ بإعجاب:

ـ فانتاستيك!

أضفت لأوكد له القداسة التي تحيط بجدتي:

ـ كل شيء هنا في منزلنا اشتريناه من مكة. حتى هذا البخور يأتي مع الكسكس كل شهر من مكة. بعد الكسكس قلت له عن اللحم المطبوخ بالزبيب بلا بِزْرِ والتوابل المخدرة:

ـ وهذه الأكلة نسميها هنا «المُروزِية».

غمغم:

ـ أهاه! فيري جود!

جدتي حانية رأسها في خشوع. الانجليزي يأكل المروزية بعين ويأكل بعينه الأخرى وجه جدتي.

لباسها أبيض، البخور يتصاعد حولها، روائح العطور عربية والصمت جليل. لقد أتقنت دورها كما علمتها إياه.

حملت إلينا الشاي خادمتنا الصغيرة في صينية فضية: لباسها أبيض، خجول، حانية رأسها، نظيفة، يداها مخضوبتان بالحنة، شعرها الأسود ممشوط جيداً ولامع، قرطاها كبيران وحركاتها متقنة. حيّت الشيخ الانجليزي بهزّة من رأسها دون أن تبتسم كما أوصيتها أنت فعلت. مسحة الحزن على وجهها تُجملها أكثر مما تعودت أن أراها. صدرت منه همهمة لذة وإعجاب عندما ذاق الشاي. قلت له:

ـ إِتس جود ذُمنت تي؟

ـ أوه! يس، فيري جود!

كان الشاي معطراً بالعنبر. مرت لحظة صمت. فكرت: الآن حانت اللحظة التي يجب فيها أن يحك علاء الدين مصباحه السحري. نهضت. غمغمتُ في أذن جدتي بلا شيء. مجرد كلمات لا معنى لها. هزت لي رأسها دون أن ترفعه. حملت المخدة البيضاء ورفعت عنها المنديل الأخضر المزركش. بأسلاك ذهبية وخطوط بيضاء. تأمل الشيخ النعل الحائل اللون. يده تمتد قليلاً نحو المخدة. نظر إليّ، رأى في عيني ما يُفهم منه أن النعل حرام مسه.

ـ ماي جاد! إِتس مافِلس.

غطيت النعل قبل أن أستدير لأترك له فرصة تأمله من خلال المنديل الجميل الشفاف. استدرت بحذر وبطء. وضعت المخدة بحركة كما لو أني أضع ضمادة على جرح. نظرة خاطفة منه إليَّ ونظرة أطول للنعل.

* * *

في مقهى سنترال أعاد عليّ للمرة الثالثة إلحاحه:

ـ ألا يمكن إذن!

ـ الأمر صعب جداً. لقد وجدت صعوبة كبيرة لأقنع جدتي حتى تسمح لك برؤية النعل. صدقني أنك أول أجنبي يرى نعل النبي. صدقني أنه لن يراه أحد سواك.

ـ أنا أفهم، لكن إذا شئت يمكن أن نتفاهم.

ـ أفهم، لكن ما حيلتي؟ إن النعل هو روح جدتي. إذا اختفى النعل ستُجنّ أو تصاب بسكتة قلبية. إنني أحبها كثيراً وأحترم مشاعرها نحو النعل المقدس.

ـ إنني أعطيك وقتاً للتفكير. حاول أن تقنعها.

ـ أنا أفهم، لكن محاولة إقناعها ببيعه ليست كمحاولة إقناعها برؤيته.

ـ طيب، لكن حاول أن تفكر في وسيلة ما.

ـ سأحاول، لكن أعتقد أنه مستحيل.

بعد لحظة قلت له:

ـ اسمع، إني أفكر في وسيلة، لكن بشرط.

ـ ماذا؟

ترددت؟ أضاف:

ـ قل. يمكننا أن نتفق على أي شيء. ماذا؟

ـ أن تغادر طنجة بمجرد أن أسلم لك النعل.

ـ طيب، خطة رائعة.

ـ أنا أيضاً سأترك طنجة إلى مكان آخر. لن أعود حتى تموت جدتي.

ـ طيب، خطة رائعة.

ـ يستحيل علي أن أبقى هنا بعد أن يختفي النعل.

ـ إنني أفهم. أفهم جيداً ما تعنيه.

ـ إنها تستمد وجودها من النعل.

ـ أنا أفهم. كم تريد؟

ـ مليون فرنك.

ـ أووه! لا. مبلغ كبير.

ـ لكنك ستشتري أجمل تحفة تاريخية، وسأظل أنا نادماً طوال حياتي.

ـ أعرف، أعرف، لكن هذا مال كثير. سأعطيك نصف مليون. لا أستطيع أن أدفع لك أكثر.

ـ يجب أن تدفع لي أكثر.

ـ لا أستطيع؟ ليس معي هنا أكثر.

ـ طيب، ستترك لي عنوانك. سأكتب لك من مكان ما وترسل لي أنت الباقي.

كلانا يتأمل الآخر بجد. قلت له في خيالي: هيَّا! قلها! قلها بسرعة يا مستر ستيوارت!

ـ أوكي. إتس جود آيديا.

آه! رائع؟ رائع يا مستر ستيوارت!

ـ أين سيكون لقاؤنا غداً؟

ـ سأنتظرك في قاعة فندق المنزه.

ـ كلا. خارج الفندق. يجب أن تكون معك تذكرة السفر في

الوقت الذي أسلم لك فيه النعل.

ـ طيب، مفهوم.

ـ في أية ساعة؟

فكر قليلاً. تأملني. قلت له في خيالي: قرر بسرعة.

ـ في الثالثة بعد الظهر.

نهضت ومددت له يدي.

ـ إياك أن تخبر أحداً.

ـ كلا. أنا أعرف.

ـ إن النعل لا يهم جدتي وحدها، إنه يهم كل الذين يحترمون هنا الأشياء المقدسة.

ـ طيب. أنا أفهم.

انصرفت. من بعيد التفت بحذر ورأيته ينهض وينصرف.

* * *

وجدته ينتظرني لدى باب الفندق. اصطنعت القلق مقترباً منه. نظر إلى الحقيبة بدهشة. في يده لفة. فكرت: نصف مليون. مزيداً من اللذة، مزيداً من الخداع والخيال والألوان.

أشرت له أن يتبعني. توقفت بعيداً عن الفندق. تصافحنا. نظر إلى حقيبتي. نظرت إلى لفته. فتحت له الحقيبة. تركته يلمس النعل بحركة سريعة. أخذ مني الحقيبة بيد وأخذت منه اللفة بيدي الأخرى. مزقت طرفاً من ورقة اللفة. أكدت عليه: نصف مليون؟

قال بصوت حاد:

ـ نعم، نصف مليون.

ـ والعنوان؟

ـ أووه! نعم، نسيت، أعتذر.

أخرج قلماً ومددت له اللفة ليكتب عليها عنوانه. أكدت عليه:

ـ ستغادر الآن طنجة.

أشار إلى سيارة واقفة لدى الرصيف:

ـ السيارة تنتظرني هناك لتحملني إلى المطار.

فكرت: وأنا سأجد نفسي، هذا المساء، في حانة ميسالينا.

* * *

جلست في ركني المعتاد. أدخن، أشرب، أشتري الوجوه بلا مساومة وأستمع إلى أغنية «هاني هاني». متعب من اللذة، متعب، لكنني لست مسروراً. إن إحساسي بالرضا لا يتم نحو امرأة واحدة. قالت فاتن:

ـ ارحيمو في المستشفى ولطيفة في الكوميسارية. لقد ثملت وضربتها لطيفة بزجاجة بيرة على رأسها.

سألتها عن فتاتين جالستين في ركن قبالتي. قالت:

ـ إنهما من الدار البيضاء.

أخذت أحد دفاتري وابتعدت. أشرت إلى أصغرهما بيدي. تبادلت مع صديقتها كلمات. أشرب، أدخن وأنتظر أول قبلة من فتاة لم أمسها من قبل.

تراخى وجهها الصغير. فمها مثل حبة فراولة. عرضت عليها كأساً. بدأت ترشف من كأسها. تلمع شفتاها. يفترّ فمها في فمي. فكرت: فراولة مغموسة في الجين ـ طونيك بالليمون. حواء تأكل

التوت البري وآدم يبحث عنها ضائعاً. هو يقترب منها وهي تحاول أن تأكل آخر حبة توت قبل أن يعانقها. أكل آدم التوت من فمها. أوحى له التوت أن يقبل حواء. آدم يعرف الأسماء كلها، لكن حواء هي التي علمته معنى القبلة.

يتضاربان من أجل فتاة. يسقط القصير. يرفس الشاب الطويل الهواء. أحدهم يقبض على ذراعه من الوراء. تضع فاتن الورقة الزرقاء أمامي. أشرب، أدخن وأمص التوت اللحمي من الفم الصغير الجديد: أقرأ في الورقة الزرقاء: «أنا لست من كنت بالأمس. أعرف جيداً ما لا أستطيع التعبير عنه. يجب أن تفهمني».

أشار الوجه الصغير الجديد إلى الكأس الفارغة. نظرت إلى توت فمها. النادل يسلي نفسه برسم مربعات على ورقة صغيرة بيضاء. قلت له:

ـ أعطها كأساً أخرى.

اقتربت منا صديقتها.

ـ أعط أيضاً كأساً لصديقتها.

مزيداً من التوت واللحم البشري. مزيداً من الخيال والمال. كتبت على ورقة فاتن الزرقاء: «يجب ألا أفهمك».

طنجة في 11 ـ 1 ـ 1972

الخيمة

من الوراء أمسك ذراعي وقال:

ـ آجي لهنا، فاين ماشي؟

هكذا يباغتني دائماً بمرح صديقي عبدون فوروسو. مشينا في طريق السمارين. قلت وقال:

ـ ماشي للسوق الداخل عند مطعم خاي أحمد بوفراقش. ما كليت شي هاد النهار. ما شربت غير قهوة بالحليب هاد الصباح. جوعان وما عندي فلوس.

ـ آجي معاي. يالله نمشو للمونوبول. عندنا أكل وشراب ونسا. صحابنا كلهم عندهم الخيم هناك. عندهم كل شي.

ركبنا سيارته في السوق البراني. قصدنا طريق بوعبيد. مررنا على الدرداب ومرقالة. أنزلني قرب مقبرة بوبانة النصرانية وقال:

ـ خلك هنا. استناني هناك تحت هاديك الشجرة. أنا راجع دابا.

ـ فوروسو: صاحب قوة خارقة.

ـ الفراقش: الأكارع.

ـ مونوبول أو مونوبوليو: مكان شركة التبغ الاحتكارية القديمة.

رأيت سيارته تسلقت طريق جامع المقراع والجبل الكبير. لا بد عنده شغل سري في تهريب «الهاش» هناك. زمن الثقة مات في الأصدقاء. هكذا دائماً يقول. له أكثر من ثلاثين دخلة إلى الحبس. سبب أكثرها تلك الثقة في الأصدقاء. هذا ما يقوله عبدون فوروسو والمخدوعون مثله.

جلست تحت تلك الصفصافة. شعرت بالابتراد والراحة تحت هذه الشجرة. أحب ليل الصيف تحت الأغصان وعلى حافة البحر. فكرت في زمان عبدون الفتي: عنفولو (قيل عنه في شبابه نطح يوماً رأس حمار فصرعه) أخرج له وُلْدْ الحافة الضعيف مصارينه في حومة السقاية بخنجر، عبسليمو الكُندي قتله حميدو بوذراع بمدية يقص بها الكيف في ماخور حومة بنشرقي، الدحش والخراط وبو هراوة وأبا طاجين وأبا كرداو يشربون اليوم كحول النار، ينعسون على عتبات المنازل، يفتشون عن الأشياء في المزابل، يصاحبون القطط والكلاب. كل الرجال الأقوياء، في هذه المدينة المباركة، تقاتلوا فعاشوا في زمانهم وماتوا في زمانهم والباقون منهم يعيشون في غير زمانهم ويقتلون أنفسهم شيئاً فشيئاً وبالسابقين لاحقون قاتلين أو مقتولين.

شعرت بالابتراد والراحة تحت هذه الشجرة. شخصان قادمان، أراهما في الظلام. شبحاهما يتمايلان. دخلا في ضياء القمر والمصابيح، في ظل شجرة وشجرة والأشجار. توقفا يتهامسان. تقدما قبالتي مثل شجرتين تمشيان. خزرا إليّ كنسرين جائعين. شعرت بالبرد بالحر والحصار تحت الشجرة. نفضت نفسي

ـ حومة بنشرقي أو حومة بني بدر: ماخور طنجة الخاص بالمغاربة.

واستويت واقفاً. يخزران إليّ بجوع. يسعيان إليّ على مهل، براثن تطل من نعليهما ووجهاهما أسودان، نعلاهما وجهاهما سواء، جناحاي يضعفان يقويان. توقفا وقال لي الطويل:

ـ أعطينا الشي اللي عندك! أعطينا كل شيء اللي عندك؟

قلت بجنون:

ـ ما عندي حتى شي حاجة. عندنا أكل وشراب ونسا. صحابنا كلهن فْ مونوبول.

سمعت صوتي في الليل بعيداً. رأيت لون الليل في عيونهما. نظر الطويل إلى القصير. أخرج القصير الماكر سكيناً براقة وقال:

ـ لازم نشوفو إذا ما كان عندك حتى شي حاجة.

قميصي صيفي أبيض بلا أكمام، سروالي صوفي رخيص يسلخ لي شيئي إذا انتصب، ألبسه في عزّ هذا الصيف والصيف الماضي، صندالتي بالية تجرح لي قدميّ، غاضباً نزعت عني قميصي، رميته للماكر، شرعت أفسخ سروالي بنفس الجنون. قال الطويل يمد لي يده.

ـ آجي أجلس معنا. خل عندك سروالك.

أعاد لي القصير القتال قميصي. قال هو وصرخت أنا.

ـ ما تخاف شي. ما تخاف حتى من شي حاجة.

ـ زمان الخوف مشى وزمان الجوع والطاعون جا.

طويت قميصي الخفيف. قال لي القصير.

ـ اجلس بلا ما تفضحنا.

جلست لا أبالي بانتصاري في انهزامي. أصحيح هذا أم غير

صحيح؟ لا يهم، لا يهم. أحسستني مثلهما. سيان عندي ما حدث. سواء لدي ما أتى أو سيأتي، في الليل أو في النهار، معهما أو مع غيرهما. دافعت عن نفسي. صرنا كأسنان المشط كما يقال. تحت هذه الشجرة نحن سواسية. أصحيح أم غير صحيح هذا؟ لا يهم، لا يهم. تساوت الأخطار بيننا تساوت، فربما تساوت الأفكار وأحسّني ولا أحسّني. جلسا قدامي. سواء كل شيء. لا يهم كل شيء. أخرج الطويل من القفة زجاجة نبيذ وكأساً، زيتوناً أسود وسجائر سوداء ووقيداً ثم نحنح يسألني:

ـ من أين أنت؟

قلت بقوة وجنون:

ـ ما عندي فلوس. عندنا أكل وشراب ونسا. هذا ما قال لي عبدون فوروسو. صحابنا كلهم عندهم الخيم فْ مونوبول. صحابنا عندهم كل شي. عندهم الدنيا كلها.

تناظرا بدهشة وقال الطويل للقصير:

ـ خله. مسكين، عقلو مريض!

مدّ لي كأساً شربتها مرة واحدة بجنون وعطش. نظر الواحد إلى الآخر مبهوتين ولعقت أنا شفتي فاتحاً عيني عليهما أقوى وأقصى ما أستطيع. أعطاني الطويل سيجارة وقلت بسرعة وقوة:

ـ ما عندي فلوس. ما عندي وقيد. عندنا أكل وشراب ونسا. صحابنا كلهم هناك فْ مونوبوليو. عندهم كل شي. عندهم الدنيا كلها.

نظرت إلى الشجرة. جعلتهما ينظران إليها بحذر. ينظران إليها وينتظران ما سيسقط منها. ضحكت في خيالي. أبتسم ثم أعبس.

أدخن بشراهة. يراقبانني بحيرة ومحبة. أنظر إلى الليل في الأشياء والشجرة وفي عيونهما. قال لي الطويل بإشفاق:

ـ إلبس قميجتك.

رميتها باصقاً عليها في الهواء. قام القصير وجاء بها من الوراء. خليته يلبسني قميصي وأنا هادئ. مد لي الطويل كأساً شربتها مثلما فعلت بالأولى. ضحكت حتى أضحكت القصير معي. ضحكنا، ضحكنا، ضحكنا أنا والقصير الماكر الأحمق والطويل العاقل يستلطف الله على عباده المجانين. أحسني خفيفاً من همومي وخوفي. لامه الطويل العاقل على ضحكه معي. فكرت: نجوت منهما وصارا يحميانني. طلعت علينا سيارة صديقي عبدون فوروسو. وقفت قبالتنا زاعقة. صاح:

آلريفي، قم يا الله في حالنا، يا الله!

نهضت واقفاً بجنون. خطفت الزجاجة وشربت من فمها مرة ومرة أخرى ومرة. سمعت الطويل يقول لي:

ـ بارك عليك. ماشي تسكر.

سأل عبدون فوروسو:

ـ آش كاين تما؟

قال الطويل باحترام:

ـ حتى شي حاجة يا السي عبدون، اشرب معنا بعض الكيسان، ولد ظريف ومزيان.

صافحاني. فكرت: لا بد أن يكونا من طنجة ويعرفان من هو عبدون. ربما يعرفان كل صحابنا في رحبة مونوبول. ضحكت صارخاً حتى هيجت الكلاب. مشيت إلى السيارة ضاحكاً وراقصاً

وكلاب تستنبح أخرى وبَعْضَ الناس. فتحت الباب واستقصاني عبدون مازحاً وضاحكاً:

ـ واش وقع لك معهم؟ ياك ما لعبت لعبك معهم؟

ركبت جنبه وهمست:

ـ قَلّغْ، قلّغْ تسمغ مني كل شي!

ضحكنا كثيراً طوال الطريق. مرّ بنا موكب عرس. سيارات حبلى بالفتيات، يصفقن مرحات. يضربن على الدرابيك والدفوف الصغيرة بجنون، أعناقهن تتطاول خارج نوافذ السيارات مثل الزرافات، أذرعهن تتمطط مثل أطراف الأخابيط. يصرخن بقوة: اداها، اداها، والله ما خلاها، عباتو، عباتو، والله ما خلاتو.

قال عبدون فوروسو:

ـ حتى حنا عندنا عرسنا فْ مونوبوليو.

نظرت بإعجاب إلى ملابسه الجديدة: قميصه وسرواله أبيضان، فضفاضان، خنجره معقوف، مقبضه من العاج، غمده من الفضة، حزامه أسود، شعره أسود مرسل، لحيته سوداء يخطها شيب خفيف جميل، عيناه كحيلتان، فمه مسوك. أنعشتني رائحة عطره العربي.

وصلنا إلى مونوبول. قال:

ـ الحياة طعام وشراب ونسا حتى يجينا الطاعون.

سمعنا الضجيج في الغناء والكلام، في بكاء الأطفال وأصوات النساء، في نباح الكلاب قريباً منا وبعيداً عنا. النجوم والقمر وضياء الفوانيس داخل الخيام وبرّاها. أينما ولينا وجهينا ومشينا يتجلى لنا فيض الأعراس. سلكنا ممراً بين الخيام. سمعنا في الخيام الخيّام.

هبوا املأوا كاس الطلى قبل أن
تفعم كأس العمر كفّ القدر

فتذكرت نيسابور، دجلة والفرات وأيام السندباد، عشتار تقتل عشاقها وشهريار يقتل أجمل النساء، شهداء بغداد، عبر كل الأزمان، يشنقون، يصلبون، يحرقون، يدفنون أحياء.

قالت طفلة في خيمة:

ـ رأيت إنساناً يغرق في البحر.

قال طفل:

ـ وفي البحر أسماك تأكل الإنسان.

قالت الطفلة:

ـ والإنسان يأكل الأسماك.

قال الطفل:

ـ والإنسان يأكل الإنسان في الأسماك.

قالت الطفلة:

ـ أنت أحمق.

قال الطفل ضاحكاً.

ـ مؤنث أحمق حمقاء.

تعثرنا في أخشاب وأقصاب وعُلب التصبير وصفائح القصدير. نبح كلب وكلاب فاستثغت[1] أكباشاً وحيوانات نَبَّهت أصحابها.. سكتت أصوات رجال ونساء وزاجرة كلبها امرأة صاحت:

---

(1) من الثغاء.

ـ كافور، اسكت، الله يعطيك الموت!

قذفوه بما أعواه لحظة فسكت. رأيت أجمل الأشياء خيمة عبدون وخيام الصحاب سياج لها. عند مدخل الخيمة البيضاء العالية والضخمة كصاحبها خروف ناعس يجتر. تململ لدى وصولنا. ضجت الأصوات في الخيمة فرحاً بنا. زغردت النساء لحلة عبدون البهية. قامت «ظريفة الريفية» وتعلقت به، باسته، عانقته، يهزهما الزهو والشوق، شدته بقوة عشق عنيف من شعره الأسود، يجمّله شيب خفيف في لون زهر اللوز في أوج افترارِه. فكرت. ما أجمل العشق في عمره الخمسين والستين وفي كل السنين! تلاعبت بأزرار قميصه الجميلة والرغبة تسيل منهما شغفاً ببعضهما. باسته في صدره المشعر، الضخم، كأنه تعضه ويداها تضمان صدره وبطنها على بطنه كأنهما جسد له ظهران. قالت برخاوة ممزوجة بعتاب من كثرة ما انتظرت هذه الليلة وليالي أخرى وكل عمر عشقها الطويل يصحو من سباته.

ـ كنت ماشية نلبس جلابتي ونمشي حتى المدينة باش نفتش عليك فاين ما كنت.

قال لها وقالت له ضاحكين والعشق في عينيهما من أجمل ما رأيت:

ـ خليني عليك يا هاد الريفية الحمقا خليني. سكرت قبل الوقت والليل باقي طويل. إمشي تعومي فْ البحار، إمشي تعومي، إمشي. . .

ـ يا الله نعومو كلنا.

ضرب على خدّي قفاها وشد بعنف رقيق. انفجرت لذاذتها

صوتاً ورقصاً.

ـ لحمي! لحمي! الله يعطيك الموت!

ثم قالت بدلال:

ـ آجي أنا وأنت. يا الله نمشو نعومو. يا الله نمشو دابا نعومو. يا الله كلنا نعومو.

فكرت: العمر يوم، والعشق في الخمسين والستين أعمار وبعده مرحباً بالطاعون.

غشينا خيمة عبدون. كل الصحاب هللوا بنا بابتهاج. أشعلت حسونة شمعتين رمزاً لوصولنا وضعتهما فوق الحجر الأسود، إحداهما كبيرة رمزٌ لعبدون والأخرى صغيرة مثل الشمعات الأخرى فوق الحجر الأسود. لست إلا صاحبه وهو الوسيط بيني وبين هؤلاء الصحاب. يشربون، يدخنون، يتلاطمون بمزاح، يطربون، ولزوم ما لا يلزم في الغناء والموسيقى. قتلوا الحزن وصلّوا عليه ألف مرة، ألف مرة صلوا عليه ألف مرة. جلست ظريفة على الزربية وعبدون فوق صندوق من الخشب وأنا جلست على الأرض ووليت وجهي إلى الحجر الأسود. أمد لنا مايروبي كأسين. شربت من كأسي وصببت الباقي على رأسي طلباً للحظ وداعياً بالعمر المديد للجميع. ضجت الفرحة في أصواتهم فتذكرت مجالس الإخوان والضحكات والليالي المواضي. سأل عبدون خاي أحمد الزهواني.

ـ والخروف، ما زال ما ذبحتوه؟

ـ استنيناك حتى تجي أنت بنفسك وتذبحوه.

نهض عنتر الساكوتي ماسكاً خنجراً وراح يشحذه على الحجر

الأسود. شربت كأسي. أكلت زيتوناً أسود. قبلت حسونة ملامساً شعرها الأسود وقلت لها:

ـ الحياة ما هي إلا هاد الحياة.

قال عبدون فوروسو:

ـ عش يا ولد. عش ونعيش جميعاً يا ولد.

ضجت البهجة في أصواتهم. حملت حسونة المناري قنديلاً غازياً. تبعناها احتفالاً. قال عبدون لظريفة الريفية:

ـ جيبي واحد القرعة ديال الخمار باش نفرغوها عليه.

أمسك خاي أحمد الزهواني وعبد اللطيف الدنيا قوائم الخروف بعنف ومداه. تخلى الخروف عن الاجترار والهلع في عينيه تلتها مسكنة ثم بَغْبَعَ ومَغْمَعَ ثم لَغْلَعَ وَلَغْلَعَ. خزر إليهم باستسلام: «خزرا إلي» كنسرين جائعين. شعرت بالبرد بالحر تحت الشجرة. نفضت نفسي واستويت واقفاً. «خبط الخروف وعيناه زائغتان»: «جناحاي يضعفان يقويان». نظر عنتر الساكوتي الذباح إلى الخنجر: «نظر الطويل إلى القصير الماكر. أخرج القصير القتال سكيناً برَّاقة. مرَّر عنتر الساكوتي نصل المدية على كفه وذراعه العارية المشعرة وقال: «لازم نشوفوا إذا ما كان عندك حتى شي حاجة». صاح الخروف مخنوقاً: باع خ خ خ. . . !

أمسك عبدون زجاجة النبيذ من ظريفة ثم جسَّ عنتر الساكوتي عقدة حنجرة الخروف جيداً والسيف البتار في يده. صاح عبدون فوروسو:

ـ حويتة! هذا هو اسم ظريفة الريفية الجديد.

صاح الخروف:

ـ ماع خ خ خ. . .

قال عنتر والسيف المشحوذ يلمح في يده:

ـ بسم الله على حويتة.

ثم نحر عنتر السياف. صاح الخروف المذبوح حتى الأذنين: باع خ. . .

الينبوع الأحمر ينفجر وينفجر وكتلة شحم وكتلتان وكتل من الشحم ترتعش، ترتعش، تحمرّ، تبيضّ، والجرح عميقاً يفترّ، تحمّر، تبيضّ الكتلات والينبوع فتورا ينساب، وعينا الخروف زائغتان. عبدون فوروسو يصب زجاجة الأحمر على حنجرة الخروف ابتهاجاً ونحن نصيح حمقى ووحوشاً وعيشاً للجميع: حويتة! حويتة! حويتة!

نضحك ونصرخ والخروف يخبط وينتفخ وخناثة صاحبة سليمان وُلد العائلة مبحوحة تزغرد وتزغرد وعبدون فوروسو يصب النبيذ على الحنجرة المذبوحة جيداً حتى جاءت صاحية من النوم ابنة خناثة من الخيمة الأخرى حاملة سطلاً عامراً بالماء وصاحت غاضبة باكية:

ـ حرام، حرام، حرام عليكم! تذبحوه في الليل وتفرغو عليه الخمار. حرام، حرام، حرام عليكم!

ثم صبت الماء غاضبة ومنتحبة على حنجرة الخروف الخابط لتحلله من الحرام القديم والجديد. حملاها إلى خيمتها الصغيرة ونعّساها جنب أختها الصغرى. حمل النسيم إلي عبير بحر الليل. وحق موت هذا الخروف والأحباب الأقوياء كالثيران العمر أعمار في مثل هذا الليل حتى يعقل الإنسان أو يأتي الطوفان.

سمعنا صراخ امرأة على بعد خيمات. فزع كل الصحاب إلى الصراخ والخروف يتمرغ، ينتفض وينتفخ. ينتفخ وأنا أتنفس ابتراد هذا الليل وهو تنتصب قوائمه خابطة في الهواء. لم أرد أن أهرع مثلهم إذ فضلت البقاء والخروف أمامي يهمد شيئاً فشيئاً والينبوع الأحمر غاض أو يكاد. صراخ حاد آخر وبكاء الأطفال وأصوات النساء والرجال تضج وتضج كل الأصوات حتى الحيوانات والجمادات. النجوم والسحب العابرة في ضياء القمر وضجيج العالم أمامي قديمه وحديثه تحت هذا الليل، بين هذه الخيام والأشياء، والخروف، وهذه الخيمة وهؤلاء الصحاب الشجعان كالثيران. ما العمر إلا الآن حتى يأتي الطاعون كما يقول عبدون.

ـ أراك ديك الموس.

ـ أطلق الشفرة من يدك.

ـ أعطيني ديك الخدمي.

رجعت حويتة لاهثة، دائخة وعرقانة. تعثرت في حبال وأوتاد الخيمة الكبيرة وقالت:

ـ كَوريلا سكران بغَى يذبح صاحبتو مونيكا.

دخلت إلى القبة وانطرحت في الزاوية متوسلة إلى القدر قرب الحجر الأسود منكفئة على وجهها تغطيه بيديها باكية، تغطيه وتشد شعرها نادبة، تغطيه بيديها نائحة، لاعنة، ثم تراخت يداها وغامت عيناها شاهقة والحجر الأسود أمامي وخلفها.

رجعوا إلى الخيمة يصحبهم كَوريلا يترنح. وجهه مخدوش، صدره عريان، كرشه بارزة وحفيان، مونيكا سكرانة وباكية، حافية ونصف عارية ودامية في وجهها ونحرها وصدرها وكل جسمها جروح.

أفاقت حويتة ونهضت وعانقت صديقتها مونيكا بلهفة وقوة. أشعلت حسونة المناري شمعتين جديدتين احتفالاً بكَوريلا ومونيكا، وضعتهما على الحجر الأسود. جعلناهما تكفان عن العويل ثم جعلناهما تطمئنان وتبسمان ثم جعلناهما تعقلان وتضحكان ثم أنعمنا عليهما ما شاءتا من الخيرات.

تركنا عنتر الساكوتي وعبد اللطيف الدنيا خارج الخيمة يسلخان الخروف ومينة سلومنّي تعينهما على غسل جوف الخروف. ناول ساقينا مايروبي قدحاً ملآن حتى حافته لكَوريلا. اندلق قليل ماسكاً إياه بارتعاش من كثرة هياجه. شربه دفعة واحدة وساح الأحمر على صدره العريان المشعر المجعد، الموشوم بالوجوه النسوية والسهام والخناجر تخترق قلباً أو قلبين متداخلين في بعضهما وهذه الكلمات الاسبانية وأخريات كثيرة (وكل جسمه موشوم) كتبها عبر الخمس والأربعين دخلة إلى الحبس (والصحابة ليسوا أقل منه وشماً وعدداً ومدداً أيام كان الدخول إلى السجن فخراً ورجولة في هذه المدينة):

NO HAY CONFIANZA EN NINGUNO
TE QUIERO MUCHO JENATHA
TU ERES MI AMOR HASTA LA MUERTE

(لا ثقة في أحد
أحبك كثيراً يا خناثة
أنت حبي حتى الممات).

صفقنا له ناظراً إلينا جاحظ العينين زائغهما. داعبه عبدون فوروسو بضربة من كفه على الكتف، وظهره، ورقبته، وشده من شعره ومسده، وهبَّط اليد حتى الذقن، دغدغ مامو كَوريلا في كل

جسمه من جديد حتى فقس مرحه وجعلنا كَوريلا يهش ويبش وينفجر ضحكه حتى أوشك أن يبول في سرواله. خرج ليبول وعاد. أوقفنا موسيقى الفردوس المفقود، في العهد القديم البعيد، وبدأنا أغنية الغزو والفقد في العهد الجديد القريب، أيام كان لطنجة أبواب تقفل إذا نزل الظلام ومن يتخلف عن الدخول إلى المدينة يُغَرَّم أو يسامح حسب مزاج الحارس ومكانة الطارق: «يا النصراني يا رايس البابور. . .».

كان صوت مامو أجمل الأصوات. قام كَوريلا يشطح ونحن نغني ونوقع بأكفنا. يغني معنا ويصفق، يضع يديه على وركيه ويلطم الهواء بعجيزته يميناً ويساراً، يرسم دوائر وأنصاف دوائر. قام عبدون فوروسو وأخرج من جيبه خمسين درهماً ورقاً بللها ببصاقه وألصقها له على جبينه فهاج شطح كَوريلا وسال عرقه، احمرَّ وجهه وعيناه سالتا فرحاً وشفتاه الصغيرتان مزمومتان لأن فمه خال من بعض الأسنان. صوت مامو رخيم وشطح كَوريلا عظيم.

انتهينا من الغناء والتصفيق والرقص والصراخ المجنون وفتحنا المسجلة لنستمع إلى أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم القديمة. بعضها حديث اللحن والغناء وشعرها قديم، بعضها قديم اللحن والغناء وحديثهما أيضاً لرغبة أهل العصر في تجديد الأصل.

قلت لحويتة الريفية وكأسي العامرة أمدها إلى فمي:

ـ أوشايد أبشونْ انَّم (أعطيني فرجك).

ـ مْرمي ما تَخسذْ (وقتما تشاء).

ـ زخْنو (الآن).

ـ أكار آنراخْ أنْعوم (قم نذهب نعوم).

ـ آذاي توشذ أعروورانم؟ (أتعطينني ظهرك؟).

قال ضاحكة:

ـ أبشون أذاش ثوشغ، أعروزْ إينو وازمارغْ (الفرج أعطيه لك، ظهري لا أستطيع).

قلت لها وعيناي في عينيها رغبة وهياج:

ـ اكار آنراح غا ربحار (قومي نذهب إلى البحر).

قال عبدون فوروسو (الذي لا يعرف إلا كلمات من الريفية):

ـ واه آخاري اموح واه! (نعم يا خالي موح نعم!).

ثم شرب كأسه حتى ثمالتها وقلت له:

ـ يا الله نمشو نعومو! يا الله بنا كاملين!

خرجت حويتة وتبعناها أنا وعبدون ورغبتنا فيها معاً تجلت في احتفالنا بها أمامنا تسير، خلفها نسير. كلانا لاطف قفاها الراقص وضربه بيده، قرصه وداعبه، وعنتر الساكوتي يقطع لحم الخروف بالساطور على صندوق من الخشب ومينة سُلّومنّي تجلس على الصندوق وكأسها في يدها والدنيا واقف يدخن الحشيش يحسب النجوم. قالت حويتة للأصحاب.

ـ أيّما ديالي على هاذ الليلة! أذ الدنيا هاد الليلة!

سمعنا طفلاً رضيعاً يصرخ في خيمة. نبح علينا كلب. رجّع أهل الخيام أفراحنا ورجّعنا أفراحهم. نبحت كلاب على الليل وعلينا، صرصرتْ حشرات وقهقهات تعالت من خيمة وخيام مزيجة بأغنية من أميركا اللاتينة تصيح في خيمة أخرى: آي ياي ياي، غن ولا تبك، وحقك أنت، وأبي كسرى، المنى والطلب، دخلت مرة ف جنينة، ماخ؟ ماخ؟ (لماذا؟ لماذا؟) واسمع نشيد الطيور، إوا

ماخ؟ (ولماذا؟) أمي تزريت؟ (لماذا تنظر إليها) يا زهرة في خيالي، أين في الناس أب، راعيتها في فؤادي، مثل أبي، ختم الصبر بعدنا. . . كل الخيام غناء وأفراح. تجاوزنا النباح والأعراس والصرصرات. تسابقنا كالممسوسين إلى الشاطئ. كنت خلف عبدون وحويتة الريفية ورائي. تعمدت أن أعيا وأشكو من ألم وخز الحصى في أخمص قدميّ حتى تفوتني حويتة لرغبة في نفسي عن تشكيل جسمها من الخلف والأمام ومن كل الجهات. تَعَرَّى عبدون فوروسو من كل ثيابه ورماها على الرمال بإهمال. تسابق وحده إلى متاهة البحر، في لون الفسيفساء تراءت مرآة البحر. مثله فعلت حويتة بثيابها الخفيفة فتراءت سمراء في ضياء القمر إلا هِلاليها بينهما لون الفجر قبل الصبح في يوم ربيعي. لا هي سمينة ولا هي نحيلة هالتها البيضاء الجميلة. صرخت مرحاً وتسابقت في جنون إلى الماء الهادئ يلمع قريباً وبعيداً كبساط من النور تهب عليه نسمات الربيع في المساء. إن لها جسم هذا العصر لابسة وعارية مثل أترابها عاشقات الليالي والغرام في الخيام، في الفردوس أو في الجحيم. تفكيرها لا هو من الماضي كله ولا هو من الحاضر كله. كثيره قديم، قليله حديث. كذلك هو عبدون فوروسو وأنا والصحاب في الخيمة الكبرى والأخريات الكثيرة. تعريت مثلهما وانبطحت على الرمل. أبصرتهما يغوصان يتراشان بالماء يصرخان. فكرت: كل عالمي الآن ذانك المخلوقان هناك وأنا هنا. كل شيء الآن في غياب إلا ما هو أمامي. يكفي ثلاثة ملاعين ليكون للوجود المرح معنى. قال لها عبدون فوروسو:

ـ يا الله!

قالت ضاحكة وهاربة في الماء منه يُلاحقها يقبضها ويُفْلِتُها.

ـ لا لا. امشي بوحدك.

ـ ما تخافي شي آلخوافة.

ـ نعم أنا خوافة، لكن امشي بوحدك.

رأيتها عائدة وهو سابح إلى العوامة بقوة مثل دلفين. نظرت إلى جسمي: أنا كالخروف وصحابي كالثيران. ليس لي عدد دخلاتهم إلى السجن ومددهم فيه ولا العضلات التي يناسبها الوشم صوراً وكلمات الغرام.

خرجت من الماء تتهادى اختيالاً ودلالاً وعياء. تمشت الحرارة في عروقه من منبته إلى رأسه نشوة إذ رآه فهز نفسه إكباراً يحييه. قالت لاهثة:

ـ هو أحمق. شربني الماء وبغى يجرني معه حتى يغرقني.

أعجبه طحلبها الأسود المندى. انبطحت جنبي ورفعت قليلاً ساقها الجميلة اليسرى. هز نفسه وترنح فرحاً وأطل عليه نشوان يحييه إجلالاً. بمجون. نظرت إليه وإليّ بفضول ثم ضحكت تسألني:

شحال من سنتيمتر عندك فيه؟

ـ عشرين.

ـ كذاب (ثم ضحكت).

ـ قيسيه إذا بغيتي.

انقلبت على بطني ومصصت صدرها حتى حلا جلدها في فمي. فكرت: أما أنت فشيئك يبلغ كل الأحجام عرضاً وطولاً حتى أكثر من خمسة وعشرين سنتيمتراً.

قالت وقلت بالريفية ضاحكين:

اقش ربحار، روح سوازايس حتى اثجونذ (ها هو ذا البحر، امشي اشرب منه حتى تشبع).

ـ تمجًّت انربحار أخ ثِرمشت انم ذايس شواي نسكر (ملح البحر على جلدك فيه شيء من السكر).

لم أكذب عليها، إذ أحسست حقاً بالحلاوة. أحلاوة جلدها في فمي أم حلاوة فمي في جلدها؟ لست أدري. ربما فكرت في الحلاوة فكانت. ضحكنا وأطلقت ساقها اليسرى من جديد رفعتها وقالت وقلت وهو يحاول أن يطل عليه:

ـ كتعرف كيف تكذب.

ـ الكذوب ديالي بحال جلدك.

ـ مال جلدي؟

انقلبت على قفاي ورأيت عبدون فوروسو واقفاً على المقفز. نظرت إليه والرمل يتساقط منه كلما ترنح وتمشت الحرارة في عروقه فراح يركع ويقوم له ويهيج له ويموج يريد أن يستحم ويفرك نفسه فيه. فكرت فيه: إنه يريد أن يقفز ويغوض فيه كما يفعل الآن عبدون فوروسو فوق العوامة حين يقفز ويغوص في الماء. قالت وقلت لها ضاحكاً ومريداً:

ـ قلت عشرين عندك فيه.

ـ قلت لك قيسيه إذا كذبتني.

لامسته، قبضته بلطف ثم شدت عليه بقوة في يدها، حَنَت عليه وقبلته برفق. قلت لها:

ما تخوفهشي. خليه يعوم أو خليه عليك.

نظرت إلى المراكب الراسية على الرمل وإليه وقامت قائلة:

ـ يا الله نشوفو هاذ العشرين ديالك.

كنت أعرف أن عبدون فوروسو لا يغار على امرأة، فكل النساء روحهن واحدة لديه، كل النساء امرأة واحدة وامرأة واحدة هي كل النساء. إذ هو الذي كان يحب ما يقوله عبد الرحمن المجذوب: «طارت القُوبعة ونزلت على العود الراشي... كل امرا قحبة غير اللي ما قدت على شي». كفاه زوجتاه حلالاً وما تشتهيه نفسه من حين لحين في عمره الخمسين وبعض السنين. لا يحملني على شيء لا أطيقه، إذ هو كثيراً ما تخلّى لي عن بعض السبايا والغنائم والهدايا بين أعراس هذه الخيام وفي داري ودار الاخوان الكرام. إن رضاه في نعمته علي وعلى بعض فقراء الأصحاب أمثالي. هو الذي قال لي في يوم من الأيام:

ـ زمن الوقار والموت على امرا مشى. هذا زمان اللي هواك هواه واللي عراك عريه.

تبعتها على هواها في مشيها وقفزها وركضها وحمقها. بين وجه وقفا أسير خلفها حين تمشي أو تطير أو تسقط وتقوم، أينما مالت أميل. تسابقنا إلى الماء وأزلنا الرمل عنا بمزاح طفولي. فركتني، فركتها، كما دخلنا خرجنا، كطفلين سعينا، بين مراكب الصيد والرمل وما يتفله الناس والبحر. شعرت بالبرد بالحر، فوق حويتة وفوقي، بين اللحم والرمل. مكثنا ما يكفي لإذابة بعض من الشحم والعرق. قالت وقلت وكلانا استرخى مبتهجاً وولّى وجهه نحو مهرجان السماء:

ـ أنت أقوى من عبدون فوروسو في النكاح والخيال.

- لكن الذراع ديالو هي الفخذة ديالي كاملة.

- ما يهم شي، أنت عندك طويل وقوي وهو عندو قصير وضعيف.

- لكن هو عندو أكثر من خمسين وأنا ما زال ما فوت أربعين.

سمعنا صياح عبدون يقول:

- سبقتني يا الملعون. لعبت لعبك معها قبل مني. كليتيها قبل مني يا عنق الفروج.

قلت ضاحكاً:

- اللي هواك هواه، واللي عراك عريه.

- ضربتني بسلاحي يا الملعون.

تسابقنا ثلاثتنا إلى الماء ضاحكين قافزين لاعبين مثل أطفال. الماء بارد هنا ومثل فرج حويتة دافئ هناك. شعرت بالبرد بالحر تحت الشجرة، فوق وتحت حويتة، بين اللحم والرمل والعرق ورائحة السمك في الخشب وأعشاب البحر، فوق وتحت الماء، في هواء هذا الليل، تحت هذه السماء.

طلع علينا صحابنا هاتفين هائجين كالثيران. رأيناهم يفعلون مثلنا. ما العمر إلا البرد والحر وما يقوله عبدون فوروسو حتى يأتي الطاعون والطوفان.

طنجة في 3 ـ 8 ـ 1973

أزرو

دخلنا منطقة أزرو (حجر بالبربرية). كل شيء مكسو بالثلج. غرابان: الأنثى تغوص قليلاً في الثلج. الذكر يحتويها متأرجحاً فوقها ناشراً جناحيه. قال رشيد:

ـ الحمام يطير ابتهاجاً عندما ينتهي من الاحتواء.

ـ ربما الغراب مسكون بروح شيطان.

ـ أنا رأيت الحمام أكثر مما رأيت الغربان.

لم يستغرق الاحتواء إلا لحظة. لم أكن أعرف أن الغراب يعيش أيضاً في الثلج. أهو يغار من نصاعة هذا البياض أم يجيء إلى هنا ليغتسل من الغبار؟ لم نَرَ أي طائر آخر.

وصلنا «ضيث عوَّا». سألت عن معنى الكلمتين. قال مصطفى:

ـ ضيت معناها بحيرة وعوّا قيل من عواء الذئب أو هو اسم طائر على ضفافها.

ـ أنا سمعت أن عوّا اسم أحد الحبيبين كانا يلتقيان هنا ثم فصلوهما. مات هو حباً وبكته هي حتى عَميت وتكونت هذه البحيرة من دموعها السحرية.

هكذا قال رشيد.

المنطقة التي نسير فيها الآن تندف فيها السماء وتَرِذُ. الطريق موحشة. صمتُ الصمت. الأنداف كأنها بساتين من الزهور البيضاء تطير متهاوية على درَّاءة السيارة ثم تتلاشى.

قال مصطفى.

ـ رجلاي تتصلبان بالبرد.

قالت:

ـ سنشرب الكونياك عندما نصل.

العاصفة الثلجية تشتد. الأشجار في بعض المناطق كثيفة عن يسارنا وأكثر ثلجاً وتربة. العجلات تزيغ كلما زاد مصطفى في السرعة. خفض من السرعة وقال:

ـ إنهم يُتْرِبُونَ هذه المنطقة بالذات لأنه تقع فيها حوادث سير.

بيوت مبنية بالحجر. حيوانات هزيلة تنكت بخطمها وحافريها الأحجار الصغيرة والثلج لعلها تعثر على نباتات نصف مطمورة. غربان فوق أعمدة الكهرباء. سمعنا نعيقاً. تخيلت غراباً أبيض وفكرت في الحمام المسكون بروح الابتهاج عندما ينتهي من التَّحاوِي.

رأينا امرأة واقفة على عتبة بيتها صالبة ذراعيها ناظرة إلى البعيد. ثوبها خفيف أخضر اللون، رأسها مدثر بمنديل أصفر مزوق بألوان أخرى. قلت:

ـ إنها تقاوم هذا البرد بهذه الثياب.

قال رشيد:

ـ إنهم متعودون. لقد قضيت ثلاث سنوات في إفران (معناها بالبربرية مغاور). رأيت ناساً يمشون على الثلج حفاة تحت المطر.

وصلنا. أوقفنا السيارة في ساحة موحلة. بركٌ من الماء هنا وهناك. دخلنا حانة صغيرة. في وسط القاعة مدفئة من حديد قديمة، تُستذكى بالأخشاب. تخدم في المشرب سيدة كهلة، سمراء، في لباس بربري زاهي الألوان، وشاب قمحي البشرة. طلبنا كونياك. قالت:

ـ عندنا روم نيجيريتا.

بين أسنانها السليمة، التي لم تَصْفَرَّ بعد، ثلاث ذهبية. طلبنا الروم والقهوة. الزبائن هادئون. يبدون كما لو أنهم خرجوا من منجم فحم وجاؤوا إلى هنا دون أن يغتسلوا. يفحصوننا بنظرات مبهورة. طلب أحدهم «ريكار» بصوت مهتاج. قالت السيدة بهدوء:

ـ نفِد.

ـ لم ينفد إلا لأنني طلبته اليوم.

أرته الزجاجة. لم يبق في قاعها حتى ما يملأ حجم واحد من كؤوسنا الصغيرة. قال لها بنفس الانفعال.

ـ لا يهم. صبِّي لي ذلك القليل وهات بيرة.

لبَّت طلبه. قال لها:

ـ سمحي لي.

ـ ما يهم شي.

ذهبتُ إلى المِجمَرة. جلست على مقعد. بدأت أتدفأ ثم خلعت حذائي. عرضت قدميّ للبُويبة التي تلتقمُ منها النارُ الخشب. تصاعد من جوربي البخار. اقتدى بي مصطفى. تدفأنا وعدنا. أفرغنا ثمالة كؤوسنا. إنهم يتابعون كل حركاتنا. خارج

الحانة قلت:

ـ لقد سلخوا جلودنا بنظراتهم. إنهم لا يحبون الغرباء.

قال مصطفى:

ـ ليس صحيحاً. أنت لا تعرفهم. إنهم مُسالمون وشجعان. إننا أثرنا انتباههم لأننا غرباء.

سألت عن مكان اسمه «منظر للاّ يطُّو». قال مصطفى:

ـ ليس بعيداً عن المدينة، لكننا سنجمد من البرد إذا ذهبنا لرؤيته.

ـ سمعت أسطورتها، لكنني لا أتذكرها جيداً.

ـ كانت زعيمة.

ـ زعيمة؟

أبوها كان زعيماً. قاوم دخول الاستعمار الفرنسي. استشهد فخلفته.

ـ لكن يطُّو الزعيمة عاشت قديماً.

ـ أنا أتكلم عن يطُّو في عهد الاستعمار الفرنسي. اعتقلوها مع ابنها الصغير كما قيل. رفضت أن تدلهم على مخابئ المقاومين فعذّبوا ابنها أمامها ولم تفش السر، فجّروا دماء من بين فخذيها ولم تفش السر، بتروا ثدييها ولم تفش السر، ثم قتلوها كما قتلوا ابنها من قبلها.

قال رشيد:

ـ أنا سمعت أنهم قتلوها بالرصاص وكانت عذراء دون العشرين من عمرها.

قلت:

ـ أنا كنت قد سمعت للايطّو الوليّة صاحبة المعجزات وقصتها مع الذئب وعابر السبيل الفلاح الذي مسخته عندما اعتدى على الذئب.

سرنا في أزقة قذرة موحلة، متهدمة مسالكها، متآكلة حيطان دورها وكالحة. أفهم بعض الكلمات الشبيهة بلغتي الريفية. طفل بائس يبكي مستنداً إلى جدار قديم. سأله رشيد:

ـ مالك؟

نظر إليه الطفل منتحباً ولم يتكلم. قلت:

ـ اتركه. لا بد أنه يبكي على الخبز.

ـ ترى متى ينتهي البكاء على الخبز...!

ـ حتى يموت الفقراء أو يموت الأغنياء.

عدنا إلى الساحة وقلت:

ـ لم نر بعد أية امرأة جميلة.

قال رشيد:

ـ لقد مسخهم تاريخهم غير النافع.

قال مصطفى:

ـ الفتيات الجميلات يهاجرن إلى المدن النافعة.

طلعنا إلى حي عند حافة الجبل. سأل رشيد طفلاً عن اسم الحي.

ـ هذه هي القشلة (الثكنة أو المعسكر).

يحمل قنينتين من البلاستيك. سألناه عما فيهما.

ـ الماء.

ـ أليس عندكم الماء هنا؟

ـ ليس بعد. إننا نجلبه من المدينة. ثلاثة دور فقط يدخلها الماء هنا.

أشار إلى دار حديثة البناء وقال:

ـ هذه واحدة.

ـ ماذا يعمل صاحبها؟

ـ يشتغل في شركة الكهرباء والماء.

استأنف سيره منعطفاً في درب موحل. الثلج يكسو سفح الجبل. نزلنا إلى الساحة. تأملنا لحظة صخرة المدينة المكسوة نتواءتها بالنُّدف الثلجية. قال رشيد:

ـ في الصيف يكون فوقها سوق صغير. يطلعون إليها ليتبردوا.

لدى عودتنا توقفنا في إفران. تغدينا في مطعم تدفئته جيدة. صاحبه فاسي يعرفه رشيد. في أقصى القاعة ابنتاه تقرآن كتابين وأخوهما الأكبر (هو أيضاً طالب في عطلة) يخدم الزبائن. السماء تعصف الأنداف وترش. الأطفال يتراكضون فوق الثلج الهش. يحفنونه ويكورونه ويتراشقون به. لم نر أي شرطي في المدينة. قلت لرشيد:

ـ إنها مدينة مثالية. صمتها يغري بالعيش فيها حتى الموت.

ـ هكذا قلت لنفسي عندما جئتها أول مرة، لكني بعد أسابيع بدأت أشعر بالوحدة الرهيبة. كنت أسافر، في نهاية كل أسبوع، إلى مدن أخرى. إنها مدينة ميتة في الشتاء وفي الصيف يستولي عليها الذين لا يبكون قط على الخبز. من الغريب أنني قضيت فيها

ثلاث سنوات دون أن أشاهد جنازة واحدة. الناس هنا كأنهم لا يموتون. (أضاف): ربما يدفنون في صمت وخفاء.

قادنا رشيد إلى دار أسرة يعرفها ليسلم عليها. بعد لحظة خرج متضاحكاً:

ـ وجدتهم كلهم نائمين. البنت الكبرى هي التي استيقظت وفتحت لي الباب. لم أتركها توقظ أمها وأخوتها. إنهم خمسة يتامى. ثلاث بنات، أكبرهن في حوالي الخامسة عشرة، وذكران يكبرانها.

قال مصطفى:

ـ لكنها السادسة مساء.

ـ هذه عادتهم تقريباً في مثل هذه الساعة. قد يستيقظون أيضاً كلهم دفعة واحدة في الثانية أو الثالثة صباحاً ليأكلوا ثم يعودوا جميعاً إلى النوم. الكبير منهم يحتج عليه الأصغر منه إذا خالف، والصغير يعاقب إذا خالف في جلسة تعقدها الأسرة خاصة للعقاب.

ـ وبماذا يعيشون؟

ـ الأم والأخوان يعملون والبنتان الصغيرتان تدرسان، أما الكبرى فتقوم بأشغال البيت بعد أن أوقفوها عن الدراسة.

قلت:

ـ حتى في هذه المدينة يوجد إذن فقراء.

ـ الفقراء الحقيقيون لم ترهم. إنهم يسكنون خلف سياج المدينة. كانوا يسكنون الأكواخ ثم بنوا لهم دوراً واطئة حتى لا يشوهوا جمال المدينة في أعين أثريائها.

توقفنا في إيموزار (معناها بالريفية مسعور، وأيضاً تعني

بالشلحة شعراً مجعداً)، ذهبنا إلى مغاور البغايا، وجدنا بعضهن واقفات خارج مغاورهن.

البرد قارس. بعضهن يرتدين غلالات النوم الشفافة فوق كنزات وتنورات أو سراويل صوفية. نادى علينا بعضهن لكي ندخل عندهن. تشاورنا. أنا رفضت. رشيد تردد ومصطفى ألح على الدخول حتى نأخذ فكرة عن حياتهن في أعشاشهن تلك. فوق سطح كل غار مدخنة تدخن. قال مصطفى:

ـ إنها مغاور دافئة. بعضها قد يكون مفروشاً جيداً.

وجوههن مطلية بالمساحيق، شفاههن مسوكة أو مصبوغة بالأحمر القاني الرخيص، أيديهن مُحنَّاة. الوشم عند بعضهن على الخدود. إنه على شكل صلبان صغيرة. يبدأ عند أكثرهن من أعلى الذقن حتى يختفي في الصدر.

فكرت: أهو تقليد ديني موروث؟

قال مصطفى:

ـ سندخل لنشرب الشاي.

قلت:

ـ لا فائدة. ليس هناك ما يغري.

شبان يقفون في دروب الحي أو يتجولون أو يدخلون البيوت والمغاور ثم يخرجون أو يمكثون فيها. الظلام بدأ يغشى المكان والبرد يشتد. العابرون يبدون من بعيد أشباحاً. قلنا لواحدة واقفة على عتبة منزل حديث البناء:

ـ البرد كثير.

قلت:

ـ شوية.

ـ واش عندكم الموسيقى والغنا؟

ـ ف الساعة اللي تعولو كل شي موجود.

ـ أنت وحدك أو معاك عيالات آخرين؟

ـ أنا وحدي، لكن كل شي يجي.

فحصتنا بنظرات هادئة ولم نضف شيئاً. قلت:

ـ لنذهب من هنا. كفانا من هذا المزاح معها. إننا نضاعف بؤسهن. لا بد أنهن يشتمننا لأننا لا ندخل ولا نغادر.

سأل مصطفى رشيد:

هل يجامعن جيداً؟

ـ في الصحو لا يكدن يخلعن حتى ثيابهن. ترفع الواحدة ثوبها الأسفل وتقول لك: «هيّا، ها أنا.» لكن إذا سكرن يتقبلن بعض الملاطفات والمداعبات كما يحدث في المدن النافعة.

سألت:

ـ ليس هناك إذن إلا لذة الفم الواحد.

ـ لم يتشتتن بعد في الجنس.

خرجنا من الحي الموحل وصعدنا درجاً إلى مقهى. سألنا النادل الخارج من المقهى عما إذا كانت في الداخل تدفئة.

ـ كل شي موجود.

قال هذا ثم أضاف:

ـ أنا راجع.

خمس منَّ هن جالسات في استرخاء حول مدفئة وسط القاعة.

يتحدثن بخفوت ويدخِّن بقلق. رجلان جالسان في ركن. طلبنا قهوة. النادلة جميلة بلا زينة، لكنها تبدو كما لو أنها لم تبتسم قط في حياتها. تخزر إلينا بعبوس مُشغلة آلة تعصير القهوة. فكرت: لماذا هذا الجفاء؟ اقتربت منها واحدة ممن في القاعة وخافتتها. قالت النادلة:

ـ إنه يتأخر دائماً هذا الحمار حتى ولو ذهب للسخرة قرب الباب.

بدت لي كما لو أنها أطلقت ريحاً خبيثة من إستها عندما نعتت النادل بالحمار. وضعت لنا الفناجين بحركة خشنة. همست في أذن رشيد:

ـ لندفع لها الثمن دون أن نشرب.

ـ لماذا؟ مالك؟

ـ إن قهوتها ستوجعني، أنا على الأقل.

ـ الناس هنا هكذا هم: إنهم طيبون. لا يجاملون.

ـ إنها تضرط من فمها.

دفعنا لها وشكرناها. بصقت علينا نظراتها وكذلك الأخريات.

خارج المقهى قلت لرشيد:

ـ كذب كبير ما سمعته عن الحياة المرحة في هذه المدن التي زرناها.

ـ إنهن بائسات. نحن لم نَدْعُ ولو واحدة منهن لتتناول شيئاً معنا. إن حياتهن جدباء لا يُخصبها سوى الدرهم العابر.

مرت واحدة. فحصناها. جسمها داعر من الأسفل والأعلى.

دعتنا التفاتاتها الباسمة إلى المقهى الذي خرجنا منه.

انشغل مصطفى في فتح صندوق السيارة ليتأكد من أنهم لم يسرقونا. استعصى فتحه. قال:

ـ لقد أدخلوا شيئاً في الفتحة فانكسر.

قلت:

ـ لنغادر قبل أن يحدث ما هو أفظع. سنحاول فتحه في فاس. لقد كرهت هذا الجانب غير النافع من المغرب.

قال رشيد:

ـ إنهم لا يسرقون هنا.

ـ وما هذا إذن؟

ـ لا بد أن أطفالاً أدخلوا شيئاً في فتحة القفل.

ـ لكننا لا نرى أطفالاً. لم نرهم حتى عندما دخلنا المدينة.

ـ إنهم أطفال الليل الذين لا نراهم ولكنهم يروننا.

طنجة في 2 ـ 1 ـ 1980

الأرامل (1)

إنه يوم كغيره من الأيام في حياتها البائسة منذ أن اختطف زوجها. طيلة شهور وهي تقتات مع ابنتيها مما يتصدق به عليها شبه أمثالها. لم يترك لها زوجها ميراثاً أو معاشاً. وكانت هي أيضاً منقطعة الجذور عن أهلها. إنها لا تتقن أي عمل في هذه المدينة. لقد جيء بها من قريتها لتعمل شغالة عند أسرة، فإذا بها تحمل من مخدومها وتلد منه طفلتين وله مع امرأة أخرى خمسة أبناء أكبرهم في الثلاثين من عمره.

هذا الصباح لم تجد حتى قليلاً من الشاي لتقدمه فطوراً لابنتيها آمال ونادية.

عندما كانت في قريتها لم تكن قط قد سمعت بمثل هذين الاسمين الغريبين عنها. الناس في قريتها يسمون البنات: فاطمة، عيشة أو عويشة، خدوج أو خديجة، رحمة أو السعدية.

إنها ما زالت شابة وجميلة، لكن الرجال لا ينظرون إليها ببراءة واحترام.

يوم صاهد. سارت على الشاطئ وآمال ونادية تتبعانها أو تسبقانها لاعبتين بما تلتقطانه من بقايا الأشياء على الرمال. صيادون يسحبون شبكتهم إلى الشاطئ. فكرت: إن مهن الرجال كثيرة. إنهم يعملون أي شيء ليعيشوا. منذ سنوات لم تطأ قدماها مثل هذا الرمل

الذي بدأ يسخن تحت قدميها. لم يسبق لها أيضاً قط أن تعرت في ضوء الشمس واستحمت في البحر كما تفعل النساء في المدينة. في قريتها لم تستطع أن تمد أكثر من قدميها ويديها ووجهها في جدول أو نهر. الرجال وحدهم هم الذين يعومون في قريتها.

كانت أمامها صخور كثيرة حانية وعالية. بعضها يغمر حافتها الماء وبعضها لا يصلها في تلك الساعة. صعدت إلى أعلى صخرة لتعيّن مكان السقوط. آمال ونادية تقفزان على لسان البحر الممتد ـ المنحسر. جلست على قمة الصخرة مفكرة في هذا المصير الذي غزاها وسواسه هذا الصباح الأكثر كآبة في حياتها. الصخرة يغمرها الماء في الأسفل وفي القاع نتوءات صخور صغيرة يعومها الماء ثم ينحسر عنها. ستسقط وحدها أم مع ابنتيها؟ استعادت صورة ساعي البريد الذي كان يشتري لهما حلوى أو دانون كلما وجدهما تلعبان قدام الباب. لقد أعجبت به، لكنه مات في حادث سيارة.

انتبهت إلى قصبة صيد مغروزة في ثقب صخرة وطنين ذباب. كان هناك بين صخرتين صغيرتين قفة فيها سمك نتن وسترة. هبطت مسرعة وسحبت ابنتيها من يديهما. أخذت تسرع في مشيتها متخيلة أن يداً وحشية ستقبض عليها من الخلف.

وهت قوى ابنتيها وهي تجرهما. تسقط إحداهما باكية. تنهض وتجرهما معاً باكيتين.

في المساء انتشر خبر يأسها بين جاراتها البائسات مثلها فجئن الواحدة تلو الأخرى لمؤازرتها. ظل منظر قصبة الصيد والسمك النتن في القفة والسترة يخيفها كلما استعادته في مخيلتها.

طنجة ـ 1980

الأرامل (2)

ألبستُهما ونظفتُهما وأفطرتهما. أنا لم أتناول إفطاري. شربت كوب ماء. مضاجع رثة. هذا ما تبقى في الحجرة. لم يبق لي إلا جسدي لأبيعه.

في طريقي إلى البحر كنت أنظر إلى الأشياء والناس بلا مبالاة ولا حسرة. هما تسبقانني أو تتخلفانني. ما كنت أهتم بما تفعلانه. على رمال الشاطئ لطّف النسيم البحري دوختي وغثياني. أطفال يلعبون الكرة وقليل من المستحمين. مراكب صيد خارج الماء ومخاطيف مطلية بالقار مغروزة في الرمال. جمجمة حيوان على حافة البحر صقلتها الأمواج. صفاء ذهني أعاد لي رؤية الأشياء، لكن يأسي كان أقوى.

في منطقة الصخور جلست على إحداها بعيداً عن التي يغمرها الموج. غلبتني دموعي. طفلتاي تلعبان بالرمل وتتراشقان بالماء. سيقول عني الناس: «وبنتاها ما ذنبهما...؟».

كومة ملابس بين صخرتين قريباً مني. وقفت ودنوت منها: ملابس رجل، قضيب الكيف. وبين فجوة صخرة سلة فيها سمكات تفوح منها رائحة عفنة. أسرعت نحوهما. أمسكتهما من يديهما ومشيتُ مسرعة. لا أحد هناك. ألتفتُ وأجرهُما. قواهما تخور وأنا أجرهما. تبكيان، تكبوان وأنا مجنونة أنظر إلى منطقة

الصخور. توقفت. طفلتاي منكفئتان على الرمال تبكيان. انكفأت مثلهما على الرمل المبتل وغفوت.

لم أعد أذكر كيف بلغت الدار. في تلك الليلة غزتني الحمى. أسعفتني جارتي طاما بحساء. ناغت طفلتي وباتت معنا.

في الصباح عادتني كل أرامل الدرب وكل يائسة كانت تعرفني.

حينما شفيت فكرت في ذلك الرجل. كلما مررت قدام متجره يغازلني. مررت على استحياء كعادتي. خرج ودعاني أن أدخل متجره لنتكلم فلم أمانع. لقد كنت أعرف ما يريده مني. لو لم يختطفوا حميد في تلك الليلة لما دخلت الآن هذا المتجر.

طنجة ـ 1983

ملحوظة: النسخة الأولى. . . ضاعت بين أوراقي مدة ثلاثة سنوات، ثم أعدت كتابتها من الذاكرة. وأنا أنشر هنا نسختيّ القصة لبيان الفارق التقني.

عائشة

محزن جداً أن تختفي عائشة من حياتنا. كل مساء نجتمع في مقهى فوينتيس FUENTES تقاعدت عن القحب قبل الثلاثين من عمرها. هرمت بسوء قبل الأوان. نحيلة، شاحبة، أسنانها مُعْوَجَّةٌ ومُسَوَّسَة. حرمت من الابتسامة الكاملة. ضحكاتها المنفعلة تخفيها بإحناء رأسها على صدرها. بدأت تعمل عند أنطونيو ـ قهواجي المقهى ـ خادمة ثم صارت عشيقته. لم يبق فيها ما يغار عليه، ولا فيه ما تغار عليه. هو أيضاً سُيَّخَتْهُ الغنغرينة في ساقه. يُقَضِّي الليل كله يأرق ويتألم. لقد جمعهما بؤس الأيام.

زوجته ماتت في طنجة وأولاده تزوجوا في إسبانيا. لا يتذكرونه إلا في بعض رسائل المناسبات. فاطمة تقحب على قدر ما تحتاج لمصروفها اليومي. إنها تنتظر من يتزوجها. تحلم كثيراً، لكنها لا تبوح بأحلامها. تقضم أظافرها إلى حد إدمائها. شابة، أنيقة، متواضعة ولا تتكلم إلا بعينيها المبتسمتين على الدوام. يُسمع صوتها فقط عندما تطلب شيئاً أو ترفضه.

اشترت عائشة، في ذلك اليوم، راديو ترانزيستور. فرحانة به إلى حد الهوس. إنها قلما تشتري شيئاً جديداً في ظروفها البائسة. ربما اشتراه لها أنطونيو أو وَفَّرَت ثمنه. لا أحد سألها ولم تقل هي كيف حصلت عليه. الراديو الترانزيستور يعتبر امتيازاً لمن يشتريه

في عزّ ظهوره بيننا نحن الفقراء. فرحنا معها بالراديو الترانزيستور. لمسناه وفحصناه على هوانا. حتى بعض الزبائن الذين يمرون أمامنا داخلين أو خارجين من المقهى هنأونا على وجود الراديو الترانزيستور معنا. نطلب من عائشة أن تضبطه على هذه الإذاعة أو تلك. تلبّي رغبتنا بفرح. إنها مولاتنا ونحن ضيوفها خيّل لي أنها لم تفرح في حياتها كما فرحت في هذا اليوم.

عليوة جاءت دائخة ومهمومة هذا المساء. إنها تحمل مساوئ من يشرب طوال النهار. طلبت قهوة وكأس ماء وسَبَّتِ الرجال. تحمل في حقيبتها اليدوية زجاجة فودكا. صرنا نشرب في الكأس الواحدة متسترين. بعض رواد المقهى انتبهوا إلينا وكذلك أنطونيو. إنهم يشاركوننا ابتهاجنا من بعيد بابتساماتهم. أحسّ بالنار في صدري وأنا أتجرع نوبتي. لم نمزج الشراب بأي سائل مُلَطِّف. هذه عادتنا عندما نريد أن ننتشي وندوخ بكمية قليلة.

عائشة من شدة فرحتها لم تعد تزم شفتيها حين تبتسم. أسنانها المهدمة معظمها تحمل جمال قبحها هذا المساء. لا تحني رأسها لتضحك. ترفع وجهها إلى فوق وصدرها المسطح يهتزّ وهي تسعل. تخفض وترفع صوت الترانزيستور على هواها. تُذْنِيهِ من سمعها أو من أحدنا.

الزجاجة فرغت. فاطمة ذهبت مع زبون. عليوة خرجت نصف نائمة متمايلة. في اليوم التالي علمنا أنها تشاجرت مع رجال الأمن فأخذوها إلى حيث ستشتاق إلى رؤية البحر الذي تحبه كثيراً.

عائشة تسكن مع أنطونيو في بيت صغير. تحمل له طعامه إلى المقهى. كل مساء تسبقه إلى البيت وتنتظره ليسهرا. عادة ما يحمل

معه كل ليلة زجاجة نبيذ. لأول مرة ترجوني عائشة أن أصحبها حتى لا تتعرض لسوء المتسكعين. إنها خائفة على الترانزيستور. لم تقل ذلك، ولكني أحسسته. أحس بتعب يثقل جسمي. حين ترددتُ في مصاحبتها ودعتنا بقليل من الفرح. شعرت بكثير من الندم بعد ذهابها حتى أوْشَكْتُ أن أجرّ جسمي لألحق بها وأصحبها إلى بيتها أو إلى حيث تريد.

مدفوعاً بالحنين إلى جولة في الأزقة القديمة ذهبت إلى حي «دار البارود». منذ سنوات لم أتجول هناك. أصيلٌ ربيعي. أم كلثوم، من نافذة صغيرة مفتوحة، يصلني صوتها: «أنت فاكراني والا ناسياني...» تذكرت فترة من طفولتي في دروب تطوان. أطفال في الساحة الصغيرة يتطاردون. نساء وفتيات بائسات يملأن أسطال الماء من الحنفية العمومية في ضجيج. أنا واقف تحت النافذة أسترجع ذكرياتي.

ـ شكري، ماذا تفعل هنا؟

تطلعت إلى النافذة. إنه بادر. منذ فترة لم أره. الباب ينفتح بسحب خيط من فوق. صعدت. لم يسبق لأحدنا أن عرف مسكن الآخر. نلتقي في مقاهي السوق الداخلي أو صدفة عند منازل الأصدقاء لنسهر. لم أره قط في المدينة الجديدة منذ صرت أسكن فيها. غرفة صغيرة. على الجدران صور شخصية له في شبابه وكهولته، وحده أو صحبة شخص أو أكثر. وجدته يشرب الشاي. جاء بزجاجة نبيذ مفتوحة غير مملوءة وكأسين صغيرين. صورة مؤطرة متوسطة الحجم. وَسَّعْتُ عيني. عائشة! عائشة عند بادر! كيف عرفها؟ لم يحدثني أحدهما عن الآخر وما رأيته قط يتردد إلى مقهى فوينتيس.

ـ السي بادر.

ـ نعم.

ـ تلك الصورة.

ـ مالها؟

رفعنا كأسينا نَخْباً.

ـ لا أعرفها. جاء بها صديق وعلقها ثم هاجر إلى فرنسا. عمل في مقصف حامياً حتى قتلوه بالرصاص.

ـ قتلوه؟

ـ تشاجر مع فرنسي وبالغ في ضربه. الفرنسي أطلق عليه النار في نفس الليلة من مسدسه.

ـ أتعطيني الصورة؟

ـ خذها إذا شئت ما دام «كيندي» المسكين قد مات. «أضاف»: أتعرفها أنت؟

ـ نعم، اسمها عائشة. ماتت منذ أكثر من عشرين سنة.

ـ ماتت هي أيضاً إذن. كيف؟

ـ اشترت راديو ترانزيستور وسهرت معنا يوم شرائه في مقهى فوينتيس. وعندما عادت إلى بيتها هاجمها متسكع سكير وأراد أن يسلبها ترانزيستورها. قاومته فضربته بالترانزيستور على رأسه وكسر هو زجاجة نبيذه على رأسها ثم طعنها في عنقها وصدرها.

قام إلى الصورة ونظر لحظة إليها كمن يراها لأول مرة، جلس وقال:

ـ نحن الفقراء يسهل علينا دائماً قتل بعضنا البعض.

عندما أعدت عليه طلب أخذي الصورة لأنصرف قال بود حزين:

ـ أرجوك أن تتركها هناك أحسن. إنها ستذكرني بكيندي المسكين أكثر من السابق. هو أيضاً عاش فقيراً في طنجة، ومات فقيراً في فرنسا.

المحتويات

هذا الكتاب

على العكس من معظم كتّابنا الآخرين، تعلّم محمد شكري لغة الأشياء العارية القاسية، قبل أن يتعلّم الكلمات «المعبّرة»، لذلك تظل حياته اليومية هي الأساس، وتغدو الكتابة بالنسبة له ادماناً جزئياً يرفض أن يجعل منه قناعاً للتجميل أو مطية للإرتقاء في السلّم الاجتماعية...

محمد برادة